سُورَةُ النَّاسِ

حين يلَوذُ الإنسانُ بربّهِ من العدوِّ الذي لا يُرى



رَدَّادُ السَّـــلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

في آخر موضعٍ من المصحف، وبعد أن عبر القلبُ عوالمَ الوحي كلَّها، وسمع نداءات السماء، وشهد قصص الأنبياء، ورأى مصائر الأمم، وتعلَّم الحلال والحرام، ووُعِد بالجنة وحُذِّر من النار؛ تأتي سورة الناس لتضعه أمام أخفى معاركه وأشدها اتصالًا بمصيره: معركته في داخله، عند تلك المنطقة

المستترة التي تتسلل منها الخواطر، وتتشكَّل فيها الإرادات، وتبدأ منها الخطوات قبل أن تراها العيون.

كأن القرآن، وهو يختم رحلته مع الإنسان، يقول له: لقد عرفتَ الطريق، ولكن معرفة الطريق لا تعني أن أعداء الطريق قد غابوا. ولقد أبصرتَ الحق، ولكن القلب الذي أبصره قد يتعرض لليلٍ خفيٍّ تُطفَأ فيه المصابيح واحدًا بعد آخر. فاحذر من ذلك العدو الذي لا يطرق بابك، لأنه يدخل من شقوق الغفلة؛ ولا يقف أمامك بسلاح ظاهر، لأنه يفضِّل أن يستعملك سلاحًا على نفسك.

ولهذا لم تكن خاتمة القرآن معلومةً تُضاف إلى العقل، بل استعاذةً تُسلَّم إلى القلب. لم يختم الوحي بعبارةٍ تجريدية، وإنما ختم بنداء النجاة: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ). فالإنسان، بعد أن يعرف، يحتاج إلى مَن يحفظ معرفته من التشويه؛ وبعد أن يؤمن، يحتاج إلى مَن يصون إيمانه من التآكل؛ وبعد أن يهتدي، يحتاج إلى مَن يثبّت قدميه كلما ازدحم حوله المضلِّلون.

إنها سورة قصيرة في عدد كلماتها، ولكنها واسعة بقدر خفاء النفس، وعميقة بقدر ما في الصدر من منافذ لا يعرفها الإنسان كلَّها. إنها لا تتحدث عن شرٍّ

بعيدٍ في أطراف العالم، بل عن الشر حين يقترب حتى يمسَّ موضع القرار فيك؛ حين يصير خاطرًا يشبه صوتك، ورغبةً تظنها رغبتك، وتبريرًا يتكلم بلسان عقلك.

قُلْ... لا تَكْتُمْ ضَعْفَكَ

تبدأ السورة بالأمر: (قُلْ).

وهذه الكلمة ليست مجرد افتتاحٍ للتلاوة، بل تربيةٌ على إعلان الافتقار. قُلها بلسانك حتى يسمع قلبك حقيقة مقامه. قُلها ولا تتجمَّل أمام نفسك بادعاء

القوة، فإن بعض الهزائم يبدأ حين يستحي الإنسان من الاعتراف بحاجته إلى الله. وقُلها لأن النجاة ليست شعورًا غامضًا يسكن الداخل فحسب، بل عهدٌ يُنطَق به، وانحيازٌ معلن إلى حمى الله.

في قوله: (قُلْ) إخراجٌ للخوف من ظلمات الكتمان إلى نور المناجاة. فما دام الألم حبيسًا في الصدر، قد يتضخم حتى يبدو قدرًا لا يُدفع؛ فإذا صار دعاءً، انتقل من ضيق النفس إلى سعة الربوبية. وحين يقول العبد: أعوذ، فهو لا يصف ضعفه فقط، بل يعلن

جهة قوته؛ إذ ليس العجز أن تحتاج إلى الله، وإنما العجز أن تحتاج إليه ثم تفرَّ منه إلى نفسك.

(أَعُوذُ): ألجأ، وأعتصم، وأدخل في الحمى، وأطلب جوارًا لا يستطيع الشر أن يقتحمه إلا بإذن الله.

والكلمة تحمل معنى الحركة؛ فكأن القلب كان مكشوفًا في العراء، تحاصره الرياح، ثم أسرع إلى حصنٍ أمين.

ليست الاستعاذة إذن ترديدًا باردًا، بل هجرةٌ روحية: أن تغادر ثقتك المطلقة بنفسك إلى الثقة بالله، وتخرج من وهم الاكتفاء إلى حقيقة العبودية.

ولم يقل: أعلم أن الله يحميني؛ لأن العلم وحده قد يبقى ساكنًا في الذهن. قال: (أَعُوذُ)، فجعل المعرفة فعلًا، واليقين التجاءً، والإيمان حركة قلبٍ نحو الله.

بِرَبِّ النَّاسِ... مَنْ يُرَبِّي فِيكَ مَا يُفْسِدُهُ الْوَسْوَاسُ

أول اسمٍ نتعلَّق به في السورة هو: (رَبِّ النَّاسِ).

والرب هو الخالق، والمالك، والمصلح، والمدبِّر، والمربِّي لعباده بنعمه وهدايته. وفي اختيار الربوبية هنا دفءٌ خاص؛ لأن المستعيذ لا يلجأ إلى قوةٍ مجهولة،

بل إلى ربٍّ تولَّى خلقه وتربيته، ويعلم مناطق هشاشته، ومداخل خوفه، والكسور التي يخفيها عن الخلق.

الوسواس يحاول أن يعبث ببناء الإنسان، والعبد يستعيذ بمن ربَّاه وأنشأه. الوسواس يبعثر، والرب يجمع؛ الوسواس يلوِّث الفطرة، والرب يطهِّرها؛ الوسواس يقود النفس درجةً درجة إلى الانحراف، والرب يردها بالتوبة والهداية درجةً درجة إلى سواء الطريق.

وفي إضافة الرب إلى الناس إشعار بأن رعاية الله لا تنقطع عنهم، مهما ازدحمت الأرض بهم. هو رب

الجميع، ولكنه يسمع استعاذة الواحد كأنه لا مستعيذ سواه. لا تضيع رجفتك بين ملايين القلوب، ولا يختلط عليه صوتك بأصوات الخائفين؛ فالذي خلق الصدور جميعًا يعلم ما يختبئ في كل صدر.

وتكرار كلمة الناس في السورة يضع الإنسان في مركز مشهد الحماية، لا تعظيمًا لاستغنائه، بل كشفًا لشدة افتقاره. فالإنسان هو الكائن الذي يستطيع أن يصعد بالإيمان، ثم يتعرض في اللحظة نفسها لهمسةٍ تريد أن تردَّه إلى الطين. فيه قابلية السمو، وفيه منافذ

الضعف؛ ومن هنا احتاج إلى ربٍّ لا يكتفي بأن يخلقه، بل يتولاه ويربّيه ويحفظه.

مَلِكِ النَّاسِ... حين تسقط ممالكُ الوهم

ثم يرتقي الالتجاء من الربوبية إلى الملك: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

فالذي نلوذ به ليس ربًّا يرعانا فحسب، بل هو الملك الذي لا يقع شيء في سلطانه خارج علمه وقدرته. والوسوسة، مهما خفيت، لا تعمل في مملكةٍ منفلتة من حكم الله. والشيطان، مهما احتال، ليس قوةً موازية

للحق، وإنما مخلوق ضعيف لا يملك أن يقهر قلبًا احتمى بالله وصدق في احتمائه.

وفي هذا الاسم تحريرٌ للإنسان من ممالك كثيرة تستعبده: مملكة الخوف من الناس، ومملكة الصورة الاجتماعية، ومملكة المال، ومملكة الشهوة، ومملكة الرأي العام، ومملكة ذلك الصوت الداخلي الذي يهدده: إن لم تتبعني خسرت كل شيء. فتأتي الآية لتردَّ الأشياء إلى أحجامها: الله هو الملك، وما عداه أسباب محدودة، وخلائق عاجزة، وظلال تزول.

الوسواس كثيرًا ما يدخل إلى النفس من باب تضخيم المخلوق؛ يجعل رضى الناس قدرًا، وغضبهم هلاكًا، وما بأيديهم خزائن لا تنفد. فإذا استحضر القلب (مَلِكِ النَّاسِ) انكسرت هيبة الزيف؛ لأنه عرف أن نواصي الذين يخافهم بيد الله، وأن الأبواب التي يرجوها لا تُفتح إلا بإذنه، وأن الأرض كلَّها لا تملك أن تمنحه شيئًا حجبه الملك، ولا أن تحجب عنه شيئًا منحه الملك.

إِلَهِ النَّاسِ... لِمَنْ يَكُونُ قَلْبُكَ؟

ثم تبلغ الاستعاذة ذروتها: (إِلَهِ النَّاسِ).

فالربوبية صلة الخلق والتربية، والملك صلة السلطان والتدبير، والألوهية صلة العبادة والمحبة والتعظيم والانقياد. وكأن السورة تجمع للعبد جهات الأمان كلَّها: الذي تستعيذ به هو الذي خلقك وربَّاك، وهو الذي يملكك ويدبِّر أمرك، وهو وحده المستحق أن يتعلَّق به قلبك ويخضع له كيانك.

وهنا تنكشف حقيقة المعركة: إن غاية الوسواس ليست مجرد أن يجعلك تخطئ خطأً عابرًا، بل أن

يزاحم حق الله في قلبك، أن ينقل خوفك ورجاءك ومحبتك وتعظيمك إلى ما لا يستحقها. قد لا يقول لك: اكفر، ولكنه يطلب منك أن تمنح شيئًا من عبوديتك لهواك، أو لصورتك، أو لشهوتك، أو لسطوة الآخرين عليك. يبدأ بهمسة صغيرة، لكن وجهته الأخيرة هي تغيير قبلة القلب.

ولذلك كان الاحتماء باسم (إِلَهِ النَّاسِ) ردًّا عميقًا على أصل الوسوسة: قلبي ليس أرضًا مباحة لكل خاطر، قلبي موضع عبودية الله. وليس كل ما يمر في داخلي جديرًا بالطاعة، ولا كل رغبةٍ تنشأ في نفسي

تستحق أن تتحول إلى قرار. هناك إلهٌ واحد، وما سواه لا يُطاع في معصيته، ولا يُقدَّم على رضاه.

وما أجمل هذا التدرج: ربٌّ يربّيك، وملكٌ يحميك، وإلهٌ تعبده. رعاية، وسلطان، وعبودية؛ ثلاثة أنهار من اليقين تصبُّ في قلبٍ واحد، حتى لا يبقى فيه موضع تستوطنه الوحشة.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ... العدو الذي يتكلم بصوتك

بعد أن عرَّفتك السورة بمَن تستعيذ به، عرَّفتك بما تستعيذ منه: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ).

لم تقل: من الوسواس فقط، بل: (مِنْ شَرِّ)؛ لأن مجرد ورود الخاطر لا يجعل الإنسان مذنبًا، وإنما الخطر فيما يحمله من إفساد، وفي استجابة القلب له واسترساله معه. وهذا من رحمة الله: لم يجعل الإنسان مسؤولًا عن كل عابرٍ يطرق صدره، فبعض الخواطر

دخان لا يعبِّر عن حقيقة القلب، ولا يضر ما دام صاحبه يكرهه ويدفعه.

والوسواس صيغة توحي بالتكرار والخفاء. إنه لا يقتحم النفس دفعةً واحدة، بل يعود إليها المرة بعد المرة، ويطرق الفكرة نفسها بألف صورة، حتى يألفها القلب. فالشر الكبير قد يبدأ اقتراحًا صغيرًا، ثم يتحول الاقتراح إلى احتمال، والاحتمال إلى تبرير، والتبرير إلى رغبة، والرغبة إلى فعل، والفعل إلى عادة، والعادة إلى قيد.

إنه لا يقول للعابد: اترك ربك، بل يقول له: أخِّر الطاعة قليلًا. ولا يقول للصادق: كن كاذبًا، بل يقول: هذه مجاملة تقتضيها الضرورة. ولا يقول لصاحب القلب السليم: احقد، بل يعيد أمامه مشهد الإساءة حتى يبدو الحقد عدلًا. ولا يقول للإنسان: اهلك نفسك، بل يفتح أمامه باب اليأس ثم يطفئ المصابيح واحدًا بعد آخر.

غير أن هذا الوسواس هو أيضًا الخنَّاس؛ يتراجع ويختفي عند ذكر الله. وهذه الكلمة تفضح ضعفه بعد أن كشفت كلمة الوسواس دهاءه. إنه جريءٌ مع

الغفلة، جبانٌ أمام اليقظة؛ يتمدد في القلب حين يخلو من الذكر، وينكمش حين يشرق فيه اسم الله.

وهنا سرٌّ تربوي بالغ الجمال: ليس المطلوب منك أن تدخل في جدلٍ لا ينتهي مع كل وسوسة، فقد يكون الجدل معها لونًا من الاسترسال. المطلوب أن تتجه إلى الله. فالظلام لا يحتاج إلى مناقشة طويلة؛ يكفي أن يُشعل المصباح. والذكر ليس كلمةً تعبر اللسان، بل حضور الحقيقة التي حاولت الوسوسة تغييبها.

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ... عند بوابة القلب

قال تعالى: (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)، ولم يقل: في قلوب الناس. فالوسوسة تحوم في الصدور، وتقترب من القلب، وتحاول أن تنفذ إليه؛ لكنها ليست هي القلب، ولا هي الإيمان الساكن فيه.

وهذا فرق يسكب السكينة في نفوس كثيرين أتعبتهم الخواطر القهرية والوساوس المزعجة، فظنوا أن ما يمر بهم يكشف حقيقتهم. كلا؛ ليس كل ما يوجد في صدرك صادرًا عنك، وليس كل خاطرٍ عابر عقيدةً

لك، ولا كل صورةٍ مؤذية رضًا بها. قد يتألم القلب من الخاطر لأن القلب حيٌّ ويرفضه؛ ولو كان راضيًا به لما عذَّبه وروده.

فالوسواس يلقي ولا يملك أن يُكره. يقترح ولا يملك أن يقرِّر. يزيِّن ولا يملك أن يحوِّل الزينة إلى إرادة إلا إذا استجاب الإنسان. وبين الخاطر والفعل مساحةٌ أودع الله فيها الحرية والتكليف والاستعانة. وفي تلك المساحة تنشأ البطولة الروحية: أن يمر بك الشر فلا تسمح له أن يصبح جزءًا منك.

والصدر ساحة ازدحام: فيه ذكرى قديمة، وخوف من غد، وصوت شهوة، ووعد إيمان، ونداء فطرة، ووسوسة شيطان. لكن القلب ليس مضطرًا إلى أن يمنح كل صوتٍ حق القيادة. والسورة تعلّمه أن يُحسن الحراسة؛ فلا يفتح أبوابه لكل طارق، ولا يسلّم مفاتيحه لكل فكرة.

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ... ليست كل الوساوس بلا وجوه

ثم تأتي المفاجأة الأخيرة: (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

فالوسوسة ليست دائمًا صوتًا خفيًّا من عالم الجن، بل قد تكون إنسانًا تراه، وعبارةً تسمعها، وصحبةً تألفها، وثقافةً تُغرقك برسائلها حتى تعيد تشكيل مقاييسك من حيث لا تشعر. قد يكون الوسواس وجهًا مبتسمًا، أو نصيحةً مزخرفة، أو فكرةً شائعةً يكررها الجميع حتى تستحي من مخالفتها.

وسواس الجن يختفي عن العين، ووسواس الإنس قد يختفي خلف المودة والمصلحة والبلاغة. الأول يلقي الفكرة في الخفاء، والثاني يمنحها منطقًا اجتماعيًا،

ويكسوها بألفاظ براقة، ثم يقول لك: هكذا يعيش العقلاء جميعًا.

ومن هنا تعلِّمك السورة ألا تقيس الأفكار بأسماء قائليها، ولا بكثرة المصفقين لها، بل بميزان الحق. فقد يأتيك الإفساد ممن يحبك ولكنه يجهل، أو ممن ينصحك ولكنه يعبد الدنيا، أو ممن يريد لك نجاحًا لا يبالي معه بسلامة روحك. وليس كل من اقترب من أذنك جديرًا أن يقترب من قلبك.

الخاتمة التي تعيدك إلى البداية

حين ينتهي المصحف بكلمة (النَّاسِ)، ينتهي الكتاب عند الكائن الذي نزل الكتاب لهدايته. بدأت رحلة الوحي بـ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، وخُتمت بالاعتصام بـ (رَبِّ النَّاسِ)؛ وبين البدء والختام يعيش الإنسان في كنف الرب: يخلقه، ويعلِّمه، ويهديه، ثم يحرس قلبه من لصوص الطريق.

وسورة الناس لا تزرع الرعب من عالم الوسوسة، بل تزرع الثقة بمن نلوذ به منه. ذكرت المستعاذ به في ثلاثة أوصاف عظيمة، وذكرت المستعاذ منه

بوصفه عدوًّا خنَّاسًا يتراجع. وكأن ميزان السورة يقول: لا تنشغل بقوة عدوك حتى تنسى عظمة ربك. إن الذي يحاربك همسًا ضعيف، والذي يحميك رب الناس وملك الناس وإله الناس.

إنها سورة تعيد الإنسان إلى وضعه الصحيح: عبدٌ ضعيف بنفسه، قويٌّ بربه، مكشوفٌ إذا غفل، محروسٌ إذا استعاذ، تعبر صدره الخواطر، لكن قلبه يستطيع أن يبقى لله.

وحين تقرؤها، لا تقرأها كمن يصف خطرًا بعيدًا، بل كمن يغلق أبواب روحه برفق، ويضيء مصابيحها، ثم يقف بقلبه عند باب الله قائلًا:

يا رب، إنني لا أرى كل ما يراد بي، وأنت تراه. ولا أعرف جميع مداخل ضعفي، وأنت تعلمها. وقد يخدعني الصوت لأنه يشبه صوتي، وتغريني الفكرة لأنها تولد في صدري؛ فكن لي ربًّا يربيني، وملكًا يحميني، وإلهًا يملأ قلبي، حتى لا يجد الوسواس في داخلي فراغًا يسكنه.

وهكذا لا تكون سورة الناس مجرد خاتمةٍ للمصحف، بل بابًا للعودة إليه؛ فكلما أضناك صخب الداخل، عدت إلى كلام الله. وكلما وسوس لك الخنَّاس، احتميت برب الناس. وكلما ضلَّ قلبك بين الأصوات، ناديته باسم إله الناس.

فآخر كلمةٍ في القرآن لا تتركك وحيدًا أمام نفسك؛ بل تضع يدك في حمى الله، ثم تقول لك: امضِ في الحياة... فإن لك ربًّا، وملكًا، وإلهًا.

الفصل الأول

خاتمةُ الوحي ومعركةُ القلب

حين يبلغ القارئ آخر القرآن، يكون قد قطع رحلةً هائلة بين آفاق الوجود وأغوار النفس؛ رأى بدء الخليقة، وسمع نداء الأنبياء، ومرَّ على مدائن الطغاة، ووقف عند أبواب الجنة، وأطلَّ على مشاهد القيامة، وتعلَّم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، وكيف يحمل أمانة الحق في عالمٍ شديد الاضطراب. ثم إذا به،

عند آخر الطريق، لا يُسلَّم شهادةَ اكتمال، بل يُعلَّم كيف يستعيذ.

كأن الوحي يقول للإنسان: لقد عرفتَ الآن كثيرًا من الحق، لكن أخطر ما يواجهك بعد معرفة الحق هو ذلك الذي يحاول أن يغيّر علاقتك به من الداخل.

فقد يعرف الإنسان طريقه، ثم تُبطئه وسوسة؛ ويوقن بالغاية، ثم يسرق منه التسويف عمره؛ ويبصر النور، ثم تتسلل إلى عينيه غشاوةٌ لا تأتيه في هيئة ظلام، بل في هيئة ضوء كاذب.

لهذا لا يختم القرآن رحلته مع الإنسان عند حدود المعرفة، وإنما يختمها عند حدود الحراسة. فالقلب لا يكفيه أن يعرف؛ إنه يحتاج كذلك إلى أن يُحمى.

والهداية ليست معلومةً تستقر في الذهن ثم يُغلق عليها، بل حياةٌ تتعرض للزيادة والنقص، والصفاء والكدر، واليقظة والغفلة. وقد يكون العبد في لحظةٍ ممتلئًا بخشية الله، ثم تمر به خاطرةٌ صغيرة لا يلقي لها بالًا، فتفتح في نفسه ممرًّا طويلًا إلى ما لم يكن يتخيل أنه سيبلغه.

إن الشيطان لا يبدأ دائمًا بمواجهة الإيمان في أصوله الكبرى؛ لأنه يعلم أن القلب قد ينتفض إذا رأى

الباطل عاريًا. ولذلك يكسو الشرَّ بما يشبه الخير، ويضع السمَّ في جرعاتٍ لا يكاد الذوق يشعر بها. ربما جاء المؤمنَ من باب الحرص، حتى يحوِّل حرصه قلقًا؛ ومن باب الكرامة، حتى يجعل كرامته كِبرًا؛ ومن باب الدفاع عن الحق، حتى يخلط غضبه للحق بغضبه لنفسه؛ ومن باب محاسبة الذات، حتى يدفعه إلى اليأس منها.

إنه لا يطلب منك دائمًا أن تهجر الطاعة، بل قد يكتفي بأن يفسد عليك روحها. يترك جسدك واقفًا في الصلاة، ثم يذهب بقلبك بعيدًا. ويترك يدك ممدودةً

بالصدقة، ثم ينفخ في داخلك حبَّ المحمدة. ويترك لسانك متحدثًا بالحق، ثم يوقظ فيه لذة الانتصار للنفس. فالعبادة قد تبقى في صورتها، بينما تُستنزف حقيقتها قطرةً قطرة؛ ولذلك كانت معركة القلب أدقَّ من معركة الجوارح، لأن الخلل فيها قد يختبئ تحت مظهر الصلاح.

وفي اختيار سورة الناس خاتمةً للقرآن دلالةٌ مهيبة: أن الإنسان لا يستغني عن ربه حتى بعد أن يقرأ كلام ربه كلَّه. بل كلما ازداد معرفةً، ازداد إدراكًا لفقره؛ لأن العلم الحقيقي لا يصنع في النفس غرور

الاكتفاء، وإنما يكشف لها اتساع ما تجهله، ودقة ما يتهددها، وشدة حاجتها إلى التثبيت.

إن الجاهل قد يثق بنفسه لأنه لا يعرف مقدار ضعفه، أما العارف بالله فيخاف على قلبه؛ لا لأنه يسيء الظن بربه، بل لأنه لا يحسن الظن بنفسه بعيدًا عن عون الله. إنه يعلم أن القلوب بين أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء، وأن الثبات ليس ملكيةً شخصية يحتفظ بها الإنسان متى أراد، بل منحةٌ متجددة يسألها صباحًا ومساءً.

ومن هنا كانت الاستعاذة توحيدًا خالصًا؛ إذ يعترف العبد فيها بأن الشر لا يُدفع بقوته وحدها، وأن بصيرته مهما اتسعت لا تكشف كل خداع، وأن إرادته مهما صلبت قد تتصدع إن تُركت إلى نفسها.

فهو لا يواجه عدوَّه متكئًا على ذكائه، بل يدخل في جوار الله، ويستمد منه نورًا يرى به، وقوةً يقاوم بها، ويقظةً يميّز بها بين صوت الحق وتنكر الباطل.

العدوُّ الذي لا يأتي من أمامك

تبدو الأخطار الظاهرة أرحم أحيانًا من الأخطار الخفية؛ لأنك تعرف موضعها، فتستعد لها. أما الوسوسة فلا تقف أمامك كي تراها، بل تحاول أن تقف داخلك، وأن تتحدث إليك بصيغة المتكلم: أنا أريد، أنا أكره، أنا أخاف، أنا أستحق.

وهنا تكمن دقة المعركة؛ لأن الإنسان قد يقاوم عدوًّا يعرف أنه عدوه، ولكنه يستجيب لخاطرةٍ يظن أنها جزءٌ أصيل من ذاته. فالوسواس لا يريد دائمًا أن يأمرك من الخارج، بل يريد أن يقنعك بأن صوته هو

صوتك، وأن رغبته هي اختيارك، وأن الطريق الذي زيَّنه لك إنما اكتشفته أنت بنفسك.

قد يلقي في قلبك سوء الظن، ثم يقدمه لك في صورة فراسة. وقد ينفخ فيك الحسد، ثم يسميه شعورًا بالظلم. وقد يوقظ فيك حب الظهور، ثم يزعم أنه حرص على وصول الرسالة. وقد يدفعك إلى القسوة، ثم يلبسها ثوب الثبات على المبدأ. وقد يثقل عليك عمل الخير، لا بأن يكرِّهه إليك صراحةً، بل بأن يهمس لك: افعله حين تكون مستعدًّا على نحوٍ أفضل.

وهكذا يؤجل الإنسان خيره انتظارًا للحظة الكاملة التي لا تأتي، بينما تمر أيامه ناقصةً من الطاعات التي كان يستطيع أن يؤديها في حدود ضعفه. فالشيطان لا يحتاج دائمًا إلى أن يمنعك من الطريق؛ يكفيه أحيانًا أن يجعلك تؤجل الخطوة الأولى.

وربما كانت أخطر وساوسه تلك التي تأتي بعد الذنب؛ إذ يفتح للإنسان باب المعصية، فإذا دخل أغلق وراءه باب الرجاء، وقال له: لم يعد لك موضع بين الصالحين. قبل الخطيئة يهوِّنها، وبعدها يعظِّمها؛ قبلها يحدِّثك عن سعة المغفرة كي يجرِّئك، وبعدها

ينسيك سعة المغفرة كي يقنِّطك. فهو لا يريد الذنب لذاته فحسب، بل يريد أن يجعل الذنب حجابًا دائمًا بينك وبين الله.

أما الوحي فيكشف الخديعة: الذنب جرح، لكنه لا يصير موتًا إلا إذا رفض صاحبه دواء التوبة.

والسقوط ليس نهاية السير ما دام القلب يستطيع أن ينهض. والله الذي أمرك أن تستعيذ به من الوسواس هو نفسه الذي فتح لك باب الرجوع، فلا تجعل من خطيئتك إلهًا يقرر مصيرك، ولا تمنح ماضيك سلطانًا أكبر من رحمة الله.

لماذا تكون المعركة في القلب؟

لأن القلب هو الموضع الذي تُقرر فيه قيمة الأشياء قبل أن تُتحرك إليها الجوارح. اليد لا تظلم وحدها، تسبقها إرادةٌ في الداخل. والعين لا تخون وحدها، يسبق خيانتها تساهلٌ خفي. واللسان لا يجرح فجأةً، تُكون الكلمة في ظلمة الشعور قبل أن تظهر في ضوء الصوت.

إن كل فعلٍ ظاهر كانت له ولادةٌ سرية في القلب. هناك بدأت الفكرة، ثم وجدت من النفس إصغاءً، ثم تحولت إلى رغبة، ثم استدعت لها الحُجج، ثم ضغطت

على الجوارح كي تنفذها. ولذلك يتجه الوسواس إلى المنبع؛ لأنه إذا أفسد الماء في أوله، جرى الفساد في السواقي كلها.

والقرآن لا يريد للإنسان أن يعيش حارسًا لسلوكه الظاهر فقط، بل يريد منه أن يتفقد المنابع التي تصنع هذا السلوك. فرب عملٍ جميل خرج من باعثٍ سقيم، ورب امتناعٍ عن الشر لم يكن تقوى، بل عجزًا أو خوفًا على الصورة. ورب صمتٍ يشبه الحلم، وهو في حقيقته انتظارٌ للحظة الانتقام. ورب كلمةٍ شديدة ظاهرها

الغضب لله، وفي أعماقها جرحٌ شخصي يبحث عن غطاء مقدس.

إن مراقبة القلب لا تعني أن يتحول الإنسان إلى سجينٍ داخل نفسه، يفحص كل خاطر حتى يُرهقه الفحص؛ فالإفراط في التفتيش قد يكون هو نفسه بابًا من أبواب الوسوسة. وإنما تعني أن يمتلك ميزانًا عامًا: هل يقربني هذا من الله أم يبعدني؟ هل يزيدني رحمةً وعدلًا وصدقًا، أم يغذي فيَّ الكبر والحقد والهوى؟ هل يجعلني أرى عيوبي، أم يشغلني بعيوب الخلق كي أنسى نفسي؟

فالعبد لا يُطالب بأن يمنع الطيور من المرور فوق رأسه، لكنه مطالب بألا يسمح لها أن تبني أعشاشها فيه. والخاطر العابر ليس مقامًا، والوسوسة ليست قرارًا، وما يطرق القلب بغير اختياره لا يعبِّر عنه حتى يفتح له الباب ويمنحه الإقامة.

المعرفة التي تحتاج إلى حارس

لقد أنزل الله القرآن هدايةً للناس، لكن الإنسان قد يحمل ألفاظ الهداية ثم تُفسد الوسوسة طريقته في التعامل معها. قد يقرأ آية الرحمة فيستخدمها لتخدير

ضميره، ويقرأ آية الوعيد فيقنِّط بها مذنبًا، ويقرأ نصًّا في الجهاد فيخوض به معركة نفسه، ويقرأ كلامًا عن الصبر فيطالب المظلوم أن يصمت عن ظالمه.

هنا لا يكون النقص في النص، بل في القلب الذي تلقَّاه وفي الهوى الذي أعاد توجيهه. فالوسواس لا يحاول دائمًا أن يبعد الإنسان عن القرآن؛ قد يحاول أحيانًا أن يقف بينه وبين القرآن، فيجعله يرى في كلام الله صورةً لهواه بدل أن يرى فيه ميزانًا يحاكم هواه.

ولذلك فإن العلم بلا تزكية قد يتحول إلى مادةٍ جديدة للغرور، والبلاغة بلا إخلاص قد تصبح ستارًا أنيقًا للنفس، وكثرة العبادة بلا مراقبة قد تجعل صاحبها يشعر أنه قد ضمن منزلته عند الله. فإذا استولى العجب على الطاعة، صار الإنسان يرى فضل العبادة ولا يرى فضل من وفَّقه إليها.

ويأتي الوسواس من هذا الباب الخفي، فيقول للعبد: أنت أفضل. لا يقولها دائمًا بصراحة، بل يجعله يستحضر حسناته كلما رأى عيوب الآخرين، وينسى عيوبه كلما رأى حسناتهم. حتى يصبح ميزانه مختلًّا:

يفسِّر لنفسه ويتهم غيره، ويلتمس لأخطائه الأعذار، ويحوِّل أخطاء الناس إلى دلائل على فساد طبائعهم.

عندئذ قد يقرأ القرآن كثيرًا، ولكن القرآن لا يعبر من لسانه إلى قلبه؛ لأن القلب امتلأ بصوت النفس فلم يعد يصغي كامل الإصغاء إلى صوت الوحي. ومن هنا نفهم لماذا جاءت سورة الاستعاذة في نهاية الكتاب: فالوحي نفسه نعمةٌ تحتاج إلى أن نستعيذ بالله من سوء تلقينا لها، ومن أن نحمل نوره بأيدينا بينما تبقى زوايا نفوسنا مغلقةً عنه.

الحراسة ليست خوفًا دائمًا

ليست اليقظة التي تصنعها سورة الناس حالةً مرضيةً من الارتياب، ولا دعوةً إلى أن يرى المرء الشيطان خلف كل خاطرٍ وكل حادثة. إنما هي يقظةٌ مطمئنة، لأن المؤمن وهو يعرف عدوه يعرف قبل ذلك ربَّه.

والسورة لم تبدأ بذكر الوسواس، بل بدأت بذكر الملاذ، فلم تقل أولًا: من شر الوسواس، وإنما قالت: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

إنها ترتب الوعي ترتيبًا رحيمًا: اعرف حصنك قبل أن تعرف عدوك، واملأ قلبك بعظمة الحامي قبل أن

نتأمل خفاء الخطر. فلو بدأت النفس بالشر ربما استوحشت، أما حين تبدأ بالله فإنها ترى الشر مهما عظم واقعًا تحت سلطان الله.

ولهذا لا تربي السورة إنسانًا مذعورًا، بل إنسانًا مستعيذًا. والفرق كبير: المذعور ينظر إلى الخطر وحده، أما المستعيذ فينظر إلى الله. المذعور يشعر أنه محاصر، والمستعيذ يشعر أن له بابًا مفتوحًا. المذعور يستهلكه سؤال: ماذا يفعل بي العدو؟ أما المستعيذ فيسكِّن قلبه باليقين: ماذا يستطيع العدو أن يفعل بعبدٍ احتمى بربه؟

والحراسة الحقيقية للقلب ليست أن يبقى مشدودًا بالخوف طوال الوقت، بل أن يبقى موصولًا بالله.

فالقلب الممتلئ بذكر الله لا يحتاج إلى أن يطارد كل ظلمةٍ على حدة؛ لأن النور إذا استقر فيه ضاقت مساحات الظلام. وليس الانتصار على الوسوسة بكثرة الانشغال بها، بل بكثرة الانشغال عمَّن توسوس له، وبما يصلح القلب، ويغذيه، ويردُّه كلما شرد إلى قبلته الأولى.

عند نهاية المصحف تبدأ مسؤولية الطريق

حين يغلق القارئ المصحف بعد سورة الناس، لا تكون رحلته قد انتهت؛ بل تكون قد انتقلت من صفحات الكتاب إلى صفحات الحياة. فما قرأه عن الصدق ينتظر أن يصير موقفًا حين تكون الكذبة أنفع له. وما قرأه عن العدل ينتظر أن يظهر حين يكون الحق مع خصمه. وما قرأه عن الصبر ينتظر أن يتجسد حين يطول البلاء. وما قرأه عن الإخلاص ينتظر امتحانه عندما تأتيه أنظار الناس وتصفيقهم.

وهناك، عند لحظة الانتقال من المعنى إلى العمل، يقف الوسواس. فهو لا يخشى المعرفة التي لا تتحرك، ولا ينزعج كثيرًا من انفعالٍ روحي يزول بانتهاء التلاوة؛ إنما يخشى أن يصير القرآن خُلقًا، وأن تتحول الآية إلى قرار، وأن يخرج الإنسان من بين السطور حاملًا نورها إلى بيته وسوقه وخصوماته وأماناته.

لهذا جاءت الاستعاذة عند الختام كأنها زادٌ للطريق خارج المصحف. لقد تعلَّمتَ، فاستعذ بالله من أن تنسى. وأبصرتَ، فاستعذ به من أن تُعمى. وعزمتَ،

فاستعذ به من فتور العزيمة. وعرفتَ نفسك، فاستعذ به من أن تخدعك مرةً أخرى.

إن خاتمة الوحي لا تقول للإنسان: لقد بلغتَ الأمان لأنك أتممت القراءة؛ وإنما تقول له: لقد عرفتَ الآن إلى مَن تلجأ في كل مرةٍ يتهدد فيها قلبك.

فأعظم ما تمنحه سورة الناس لقارئها ليس الخوف من الوسواس، بل الوعي بأن القلب أمانة؛ وأن هذه الأمانة، على شدة ضعفها، ليست متروكةً بلا عون. لها ربٌّ يتعهدها بالتربية، وملكٌ يحوطها بسلطانه، وإلهٌ إذا امتلأت بمحبته ضاقت فيها مقاعد الشيطان.

وهكذا ينتهي القرآن والعبد واقفٌ عند باب الله، لا مزهوًّا بما عرف، ولا معتمدًا على ما عمل، بل يقول بصدق الموقن وفقر المحتاج:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

فكأن آخر ما يعلِّمك الوحي إياه أن أعظم انتصاراتك ليست أن تشعر بأنك لا تُهزم، بل أن تعرف إلى مَن تفرُّ كلما خفت الهزيمة.

الفصل الثاني

قُلْ... حين يصير الاعترافُ بالضعف قوّة

تبدأ سورة الناس بفعلٍ صغير في مبناه، عظيم في دلالته: (قُلْ).

كان يمكن أن يأتي المعنى خبرًا عن الله: إن ربَّ الناس يحمي عباده من الوسواس. وكان يمكن أن تكون السورة دعاءً يُقرأ دون أن يسبقَه أمرٌ بالنطق.

لكن الله قال لنبيِّه ﷺ، ولكل من يتلو الوحي من بعده: (قُلْ)؛ لأن في الشرور التي تستوطن الصدور شيئًا لا يُهزم بالصمت وحده، ولأن الإنسان يحتاج أحيانًا إلى أن يسمع نفسه وهي تعلن جهة انتمائها وموضع احتمائها.

قُلها؛ فالإيمان ليس معنىً خافتًا يختبئ في زوايا الروح، بل كلمةٌ تقوم بها الحجة، ويتحدد بها الموقف، ويتحرر بها القلب من التردد. وقُلها؛ لأن الوسواس يهمس، والحق يُقال. الباطل يتخفَّى في أعماق الصدر، أما الاستعاذة فتخرج إلى نور اللسان،

فيتحول ما في القلب من افتقار إلى عهدٍ مسموع بين العبد وربه.

إن كلمة (قُلْ) لا تطلب منك أن تصف حالك، بل أن تصنع حالًا جديدة. قبلها قد تكون مضطربًا بين الخوف والرجاء، مشتتًا بين أصوات كثيرة؛ فإذا قلت: (أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) انتقل القلب من الحيرة إلى الجهة، ومن الانكشاف إلى الحمى، ومن الاستسلام للخاطر إلى مقاومته بالله.

فبعض الكلمات لا تُخبر عن الإنسان فقط؛ إنها تعيد تشكيله. وكلمة الاستعاذة من هذا القبيل: حين

تخرج صادقةً من اللسان، فإنها تجمع شتات الداخل، وتردُّ النفس من ضوضائها إلى أصلها، وتذكِّر الإنسان بأنه ليس وحده في هذه المعركة.

قُلْها ولا تتظاهر بالقوة

في طبيعة الإنسان ميلٌ إلى إخفاء ضعفه، ولا سيما حين يتوهم أن الاعتراف بالحاجة ينتقص من كرامته. يريد أن يبدو قادرًا على السيطرة، ثابتًا أمام المخاوف، مستغنيًا عن النصيحة والعون؛ حتى إذا خلا

بنفسه سمع تصدع الأشياء التي أخفاها خلف مظهر التماسك.

لكن الوحي لا يربي الإنسان على التظاهر، بل على الصدق. يقول له: اعترف بأن في العالم شرًّا لا تبصر كل طرقه، وأن في نفسك أبوابًا لا تحسن دائمًا حراستها، وأنك قد تُخدع بالفكرة لأنها جاءت في ثوب الحكمة، أو تُساق إلى الخطأ لأن الهوى أحسن تزيينه.

قُل: أعوذ. لا تقل: أنا أعرف حيل الشيطان كلها. ولا تقل: لقد بلغت من الإيمان ما يجعلني في مأمن. ولا تتكئ على تجربةٍ سابقة نجوت فيها، فقد يأتي

الامتحان من بابٍ لم تحرسه، وربما جاءت الفتنة من موضع القوة نفسها، فتحولت نعمتك بابًا إلى الغرور.

كم من إنسانٍ هزمته ثقته المفرطة بنفسه قبل أن يهزمه عدوه! ظن أنه لا يُفتن، فلم يراقب قلبه. ورأى نفسه فوق السقوط، فلم يبتعد عن أسبابه. واستهان بالخطوة الأولى لأنه كان واثقًا من قدرته على الرجوع، حتى استيقظ وقد صار الطريق الذي دخله عادةً يصعب عليه الخروج منها.

أما المستعيذ فيعرف أن الثبات توفيقٌ متجدد. لا يرى نجاته الماضية ضمانًا ذاتيًا للمستقبل، بل يراها

فضلًا يشكره، ويسأل الله دوامه. فهو قوي، ولكن بالله؛ ثابت، ولكن بتثبيت الله؛ مبصر، ولكن بالنور الذي يقذفه الله في قلبه.

وهذا الاعتراف لا يحطم إرادة الإنسان، بل يحررها من أعظم أوهامها: وهم الاستغناء. فالذي يعرف ضعفه يستعد، والذي يعرف مواضع جراحه يحميها، والذي يعلم أنه قد يُخدع يزن الخواطر قبل أن يتبعها. أما من ينكر ضعفه، فإنه يتركه يعمل في الظلام حتى يفاجئه من حيث ظن نفسه قويًّا.

حين يتحول الخوف إلى مناجاة

الشر الذي لا يُسمَّى يتضخم في النفس. والخوف الذي لا يجد طريقًا إلى الدعاء قد يتحول إلى قلقٍ مبهم يملأ الصدر دون أن يعرف الإنسان من أين جاء. تتداخل الهواجس، وتتكرر الاحتمالات، ويظل القلب يدور حول الخطر حتى ينسى باب النجاة.

ثم تأتي كلمة (قُلْ) لتفتح منفذًا في هذا الاختناق: لا تحبس خوفك في صدرك، بل ارفعه إلى ربك. لا تتركه حديثًا دائريًا بينك وبين نفسك، بل حوِّله إلى مناجاة. فما دام الخوف في دائرة النفس، فإنه يُقاس

بحدود قدرتك؛ فإذا صار دعاءً، دخل في سعة قدرة الله.

لا يعني ذلك أن تختفي المشاعر كلها بمجرد النطق، فالقلوب تمرض وتتعافى وتتدرج في السكينة. لكن الدعاء يغيّر موقع الإنسان من خوفه؛ فلا يعود غريقًا فيه، بل يصبح عبدًا يشكو إلى من يملك البحر والشاطئ. وقد يبقى الألم، لكن الوحدة تزول، وتبقى المعركة، لكن القلب يدرك أن له معينًا.

وكم من همٍّ لم تتغير أسبابه سريعًا، لكن الإنسان تغيَّر حين ناجى الله به! كان يحمله وحده، فلما دعا شعر

أن ضعفه صار موضوعًا للعناية الإلهية، وأن دمعه ليس سائلًا ضائعًا في ليل العالم، وأن الأنين الذي لا يسمعه الناس لا يغيب عن رب الناس.

إن المؤمن لا يخجل من خوفه أمام الله؛ لأن الله يعرف ما في صدره قبل أن ينطق. لكنه حين ينطق، يمارس عبوديته، ويعيد ترتيب العلاقة بينه وبين ما يخيفه: الخطر مخلوق، والله خالقه؛ والوسوسة عارضة، والله رب القلب؛ والشر محدود، وسلطان الله لا يحده شيء.

الكلمة التي تجمع القلب

قد يكون لسان الإنسان في مكان، وقلبه في مكان آخر. يقول كلماتٍ اعتادها، بينما تواصل النفس ركضها خلف المخاوف والرغبات. ولهذا لا يكفي في الاستعاذة أن تتحرك الشفتان؛ المقصود أن يعود القلب مع الكلمة، وأن يدرك معنى الجهة التي يفر إليها.

حين تقول: أعوذ بالله، فتوقف قليلًا عند معنى ما تقول. أنت لا تنطق صيغةً لإتمام عادة، بل تدخل حصنًا. أنت تعلن أن فكرك ليس متروكًا لكل طارق،

وأن قلبك ليس ملكًا لكل رغبة، وأن الخاطر مهما ألحَّ لا يملك أن يصبح سيدًا عليك.

وحضور القلب في الاستعاذة لا يُقاس دائمًا بقوة الشعور. قد يقولها الإنسان وهو مضطرب، ولا يشعر فورًا بتلك الطمأنينة التي يرجوها؛ لكن صدقه في الرجوع إلى الله عبادة، واستمراره في دفع الوسواس مجاهدة. فليس من شرط اللجوء أن تصل إلى الباب ساكنًا؛ يكفي أن تعرف الباب، وأن تمضي إليه ولو كنت ترتجف.

بل ربما كانت الاستعاذة في أشد لحظات الاضطراب أصدق صور العبودية؛ لأن العبد لا يجد في نفسه طمأنينةً يتكئ عليها، فيأتي إلى الله بفقره مجردًا، لا يحمل إلا ثقته بأن الرب يسمع المنكسرين.

ومع تكرار الرجوع تتعلم النفس طريق العودة. فكما أن الوسواس يكرر طرقه، يكرر المؤمن استعاذته وذكره وصلاته، حتى يصير فراره إلى الله أسرع من استرساله مع الخاطر. وفي البداية قد تقوده الوسوسة بعيدًا قبل أن ينتبه، ثم يتربى قلبه حتى يكتشفها عند

أول الطريق، ثم يبلغ من اليقظة أن يعرف وقع خطواتها قبل أن تستقر.

وهذا من أسرار التربية الإيمانية: ليست قوة القلب في ألا يمر به شيء، بل في سرعة عودته. وليس الصفاء ألا يتكدر الماء قط، بل أن يمتلك منبعه ما يغسل الكدر كلما طرأ.

قُلْ... فالوسواس يعيش في المساحات الغامضة

من طبيعة الوسوسة أنها لا تقدم نفسها واضحةً للإنسان؛ إذ لو قالت له: أنا أريد إفسادك، لنفر منها. إنها تترك المعاني ملتبسةً، وتخلط الحق بالهوى، والنصيحة بالتثبيط، والحذر بالجبن، والكرامة بالكبر، والرجاء بالتسويف.

أما البيان فيبدد مساحات الغموض. ولهذا تكون كلمة (قُلْ) دعوةً إلى إخراج الموقف من الالتباس: أنا عبدٌ لله، ألوذ به من كل ما يريد أن يقطعني عنه.

وحين تتحدد هذه الحقيقة، يصبح من الأسهل أن تُعرض عليها الخواطر.

إذا قال لك خاطرٌ: لا تتب، فقد تأخرت كثيرًا، فاسأله: هل يقربني من ربي أم يقطعني عنه؟ وإذا قال: لا تفعل الخير حتى تخلص نيتك تمامًا، فانظر: هل يدعوك إلى إصلاح النية والعمل، أم يريد تعطيل العمل باسم كمالٍ موهوم؟ وإذا قال: أنت خيرٌ منهم، فاعلم أن الخير الحقيقي يورث تواضعًا وشكرًا، لا ازدراءً واستعلاءً.

إن النور لا يكتفي بإظهار الطريق، بل يكشف كذلك الأقنعة. وذكر الله يعيد تسمية الأشياء بأسمائها: الحسد ليس عدلًا، والرياء ليس دعوةً إلى الخير، واليأس ليس تواضعًا، والقسوة ليست دائمًا قوة، والاسترسال في الخوف ليس احتياطًا.

حين يقول العبد كلمة الاستعاذة بوعي، فإنه يطلب من الله ألا يحميه من الشر الظاهر فحسب، بل من القدرة الخبيثة على إعادة تسمية الشر حتى يحبه.

القول عهدٌ لا تعويذة

لا تقدم السورة الاستعاذة بوصفها حروفًا تعمل منفصلةً عن القلب والعمل. فالذي يقول: (أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم يفتح للوسواس أبوابه مختارًا، يشبه من يطلب الأمان ثم يغادر الحصن كلما ناداه العدو.

الاستعاذة الصادقة كلمةٌ يتبعها موقف. تستعيذ بالله من الفتنة، فتبتعد عن مواطنها بقدر استطاعتك. وتستعيذ من الحسد، فتدعو لمن حسدتَه بالبركة، وتذكّر نفسك بأن فضل الله لا تنفد خزائنه. وتستعيذ من الرياء، فتخفي من طاعاتك ما تستطيع، وتقاوم

شهوة الثناء. وتستعيذ من الغضب، فتسكت حين تعرف أن الكلام سيحملك إلى الظلم.

إن الاعتصام بالله لا يلغي دور الإنسان، بل يضعه في موضعه الصحيح. العبد يبذل جهده، لكنه لا يعبد جهده. يأخذ بالأسباب، لكنه يعلم أن الأسباب لا تحرس القلب إلا بتوفيق الله. فهو لا يقول: سأقاوم وحدي، ولا يقول: سأنتظر النجاة دون مجاهدة؛ بل يجاهد مستعينًا، ويستعين مجاهدًا.

وهذه هي القوة المتوازنة التي تصنعها السورة: قوةٌ لا تتكبر، وافتقارٌ لا يستسلم. فالعبد يعترف بعجزه عن

الاستقلال، لا بعجزه عن الفعل. يعرف أنه لا يستطيع بغير الله، لكنه يستطيع بالله أن يغلق بابًا، ويقطع عادةً، ويرد خاطرًا، ويبدأ توبة.

الشجاعة في أن تقول: لا أعرف نفسي كلَّها

لعل من أعمق ما تكشفه كلمة (قُلْ) أن الإنسان ليس شفافًا تمامًا لنفسه. قد يجهل بعض دوافعه، ويزين له عقله ما أحبته نفسه، ويمنح أهواءه أسماءً نبيلة. ولذلك يحتاج إلى الله لا ليحميه مما حوله فقط، بل ليكشف له ما خفي عليه من داخله.

قد يفعل الإنسان خيرًا وتكون نيته ممتزجةً بحظ النفس، لكنه لا يدرك. وقد يخاصم من أجل مبدأ وفي غضبه شيءٌ من الانتقام لجرحه الشخصي. وقد يظن أنه زاهد، وإنما هو عاجز عما زهد فيه؛ فإذا قدر عليه تبدل حاله. وقد يحسب صمته حلمًا، وهو خوفٌ من المواجهة.

ليس المقصود أن يشك الإنسان في كل نية حتى يعجز عن العمل، وإنما أن يظل متواضعًا أمام تعقيد نفسه، يسأل الله البصيرة والإخلاص، ولا يمنح ذاته حكم البراءة المطلق.

فمن قال: أعوذ، فقد اعترف ضمنًا بأنه لا يحيط بجميع ما يستعيذ منه، وأن رب الناس أعلم به من نفسه. وفي هذا الاعتراف راحةٌ عجيبة؛ لأنك لا تُكلَّف أن تكون عالمًا بكل خفاياك قبل أن تلجأ، بل تلجأ إلى الذي يعلمها ليطهرك منها ويهديك فيها.

من الأمر إلى الاستجابة

تبدأ السورة بصوت التكليف: (قُلْ)، ثم تنتظر من العبد أن يجيب. وبين الأمر والإجابة تتحدد حقيقة

العلاقة بالله: هل يبقى القرآن صوتًا نسمعه، أم يتحول إلى صوتٍ ننطق به ونعيش مقتضاه؟

إن الله لا يريد منك أن تتأمل جمال الأمر فقط، بل أن تستجيب. قُل حين تصحو وتشعر أن قلبك مكشوفٌ ليومٍ لا تعرف ما يحمله. قُل حين يهاجمك سوء الظن. قُل حين تنفتح أمامك أبواب الشهوة. قُل حين يغريك الثناء، وحين يكسرك الذم، وحين يوهمك اليأس أن الله قد تركك.

قُلها لا بصوت المنهزم، بل بصوت العبد الذي عرف موضع نصره. أنت لا تعلن أن الشر أقوى

منك، بل تعلن أن ربك أقوى من الشر. ولا تقول إنك بلا إرادة، بل تضع إرادتك في موضع الاستمداد من إرادة الله وتوفيقه.

وهكذا تتحول كلمة واحدة إلى بوابة نجاة. (قُلْ): أخرج ضعفك من خفائه، وسمِّ ربك، وحدد جهة قلبك، ولا تترك الوسواس ينفرد بك في صمت الصدر.

فقوة المؤمن ليست في أن يخلو من مواطن الضعف؛ وإنما في أنه إذا اكتشف ضعفه لم يسلمه لليأس، بل حمله إلى الله.

يقولها وهو يعلم أن اعترافه بالحاجة ليس سقوطًا من مقام الكرامة، بل هو عين كرامته؛ لأنه عبدٌ لا يمد يده إلى الفراغ، بل إلى رب الناس، وملك الناس، وإله الناس:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

الفصل الثالث

أَعُوذُ... هجرةُ القلب إلى الحِمى

ليست كلمة (أَعُوذُ) وصفًا ساكنًا لحالة القلب، بل حركةٌ كاملة في جهة الله. إنها فعل مضارع، كأن الالتجاء لا يحدث مرةً واحدة ثم ينتهي، وإنما يتجدد كلما تجدد الخطر، ويعود كلما عادت الوسوسة، ويظل العبد في معناه مهاجرًا من انكشافه إلى الستر، ومن اضطرابه إلى السكينة، ومن ضعفه المنفرد إلى القوة المستمدة من الله.

حين يقول الإنسان: أعوذ، فكأنه كان واقفًا في فضاءٍ مكشوف تتقاذفه الرياح، ثم أبصر حصنًا فاندفع إليه. غير أن الحصن هنا ليس جدارًا يحجب الجسد، بل صلةٌ تحرس القلب؛ وليست أبوابه من حجارة، بل من ذكرٍ ويقينٍ وتوكل. يدخل العبد إليه كلما استشعر قرب الشر، فيجد أن المسافة بينه وبين الأمان لم تكن طريقًا طويلًا، بل كلمةً صادقة: يا الله.

في اللفظة معنى الالتصاق بالملاذ؛ فلا يكتفي المستعيذ بأن يعرف وجود الحمى، بل ينحاز إليه. وكم يعرف الإنسان من الحقائق التي لا ينتفع بها لأنه

يقف منها موقف المتفرج! يعلم أن الله قريب، لكنه يستهلكه القلق كأنه متروك. ويعلم أن الله قادر، لكنه يحسب أبواب النجاة بمقدار قدرته الشخصية. ويعلم أن الذكر حصن، ثم يترك قلبه نهبًا للأفكار ساعاتٍ قبل أن يذكر.

أما (أَعُوذُ) فتنقل المعرفة من الذهن إلى الوجدان، ومن التصديق المجرد إلى الممارسة. ليست أن تعرف أن لك ربًّا فحسب، بل أن تلوذ به؛ ولا أن تؤمن بأنه يحفظ فحسب، بل أن تضع خوفك في حماه.

الفرار الذي لا يُعَدُّ هزيمة

في معارك البشر قد يكون الفرار علامة ضعف، أما في معركة القلب فإن الفرار إلى الله هو عين الشجاعة. ذلك أنك لا تفر من مسؤوليتك، بل تفر من ضعفك إلى مصدر القوة، ولا تترك ساحة المجاهدة، بل تدخلها مستمدًّا العون ممن يملك قلبك وعدوك ومصير المعركة.

قال الله تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ). ولم يقل: قفوا بعيدًا عنه حتى تصلحوا أنفسكم، ولا: انتظروا حتى تصيروا جديرين بالقرب؛ بل أمر بالفرار إليه. فالعبد لا يصلح

نفسه أولًا ثم يأتي، وإنما يأتي ليصلحه الله. ولا يتطهر كاملًا ثم يطرق الباب، بل يطرق الباب بما علق به من غبار الطريق.

وهذا من أعظم ما تمنحه الاستعاذة للقلب المتعب: أنها لا تشترط عليك أن تكون قويًّا لكي تلجأ؛ بل شرعت لأنك ضعيف. ولا تطلب منك أن تكون هادئًا قبل المناجاة؛ بل تدعوك أن تأتي باضطرابك. لا تقل: سأستعيذ حين يصفو قلبي، فقد تكون الاستعاذة هي الطريق إلى صفائه. ولا تقل: سأعود

إلى الله حين أكون أفضل؛ فإنك لن تصير أفضل إلا بعودتك إليه.

إن الشيطان يريد أن يجعل ضعفك حجابًا بينك وبين الله، بينما يريد الله أن تجعل ضعفك بابًا إليه. يقول لك الوسواس: كيف تدعو وأنت العاصي؟ ويقول لك الوحي: وكيف لا تدعو وأنت المحتاج؟ يقول لك: لقد عدت إلى الذنب مرارًا. ويقول لك ربك: عد إليَّ مرةً أخرى. فالطريق إلى الله لا يُغلقه تكرر عثرتك، وإنما يغلقه إصرارك على البقاء بعيدًا.

الاستعاذة اعترافٌ بحدود الإنسان

في كلمة (أَعُوذُ) انهيارٌ هادئ لوهم السيطرة.

فالإنسان يحب أن يتخيل أنه يمسك جميع خيوط حياته، وأنه يستطيع بالتخطيط والمعرفة أن يأمن كل مفاجأة. ثم تأتي الأيام فتعرِّفه إلى هشاشة حساباته: حدثٌ صغير يقلب ترتيبه، وكلمةٌ عابرة تبدل مزاجه، وخاطرٌ واحد يسرق منه ليلةً كاملة.

والاستعاذة لا تلغي العقل ولا الأسباب، ولكنها تضعهما في حجمهما الصحيح. ذكاؤك نعمة، لكنه لا يكشف كل مكر. وتجربتك نور، لكنها لا تمنع كل

عثرة. وإرادتك قوة، لكنها تتبدل وتفتر. أما الله فيعلم من أين يأتيك الشر، وكيف يتخفى، وأين يلامس ضعفك.

لهذا لا يقول المستعيذ: أعوذ بمعرفتي، أو بصبري، أو بصلابة شخصيتي؛ بل يقول: (أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ). إنه يستعمل معرفته، ويجاهد بصبره، ويقوي عزيمته، لكنه يعلم أن كل ذلك أبوابٌ لا تفتح إلا بتوفيق الله.

وهذا الاعتراف يحرر القلب من عبءٍ ثقيل: عبء أن يكون حارس نفسه الوحيد. فأنت مأمور بالمراقبة

والمجاهدة، لكنك لست متروكًا إليهما. تبذل ما تستطيع، ثم تسلِّم قلبك إلى ربه، وتقول: يا رب، قد أحرس الباب الذي أعرفه، ولكنني لا أعرف كل الأبواب؛ فاحرسني من حيث لا أعلم.

من ماذا نعوذ؟

ظاهر السورة يحدد الشر: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ). غير أن هذا الشر واسع المداخل؛ فالوسواس لا يقتصر على الدعوة الصريحة إلى

المعصية، بل يحاول أن يفسد علاقة الإنسان بنفسه، وبربه، وبالناس، وبالزمن، وبالأمل.

نعوذ بالله من خاطرٍ يجعلنا نسيء الظن به، فنحسب تأخر الإجابة إهمالًا، والابتلاء تخليًا، والمنع حرمانًا مجردًا من الحكمة. ونعوذ به من وسواسٍ يصور الله للعبد على غير ما عرَّف به نفسه من الرحمة والعدل والحكمة، حتى يضيق قلبه بربه بدل أن يضيق بما يبعده عنه.

ونعوذ بالله من وسواس النفس حول ذاتها؛ حين يرفعها حتى تتكبر، أو يخفضها حتى تيأس. فالشيطان

لا يهمه من أي الطرفين يخرج الإنسان عن العبودية: أن يعبد ذاته بإعجاب، أو يظل أسيرها بكراهيةٍ تحرمه من الرجاء والعمل. كلاهما انشغالٌ بالنفس عن الله، وإن اختلفت الصورة.

ونعوذ به من وسواس العلاقات؛ من كلمةٍ توغر الصدر بين أخوين، ومن تأويلٍ سيئ يحول العتاب الممكن إلى قطيعة، ومن ظنٍّ يتضخم حتى يصبح حقيقةً لا دليل عليها. كم من مودةٍ لم يقتلها حدثٌ عظيم، بل قتلتها تفسيراتٌ صغيرة تُركت تنمو في

الظلام! وكم من إنسان عادى أخاه لا بسبب ما قاله، بل بسبب ما أوهمه الوسواس أنه قصده!

ونعوذ بالله من وسواس الزمن؛ من التسويف الذي يسرق الأعمار في هدوء، ومن الندم الذي يحبس الإنسان في ماضٍ لا يستطيع تغييره، ومن القلق الذي ينقله إلى مستقبلٍ لم يأت بعد. فيبدد الوسواس الحاضر بين قبرين: ذنبٍ مات زمانه، وخوفٍ لم يولد زمانه.

الاستعاذة تعيد الإنسان إلى اللحظة التي يملك فيها الطاعة: الآن. يمكنه الآن أن يتوب، ويعتذر، ويصلي،

ويبدأ، ويقطع خاطرًا مؤذيًا قبل أن يصير قرارًا.

فالشيطان يوزع القلب بين الأمس والغد حتى يفقد اليوم، أما الله فيفتح له باب اللحظة الحاضرة.

ليست كل معركةٍ تحتاج إلى حوار

من حيل الوسواس أنه يستدرج الإنسان إلى مناقشاتٍ لا تنتهي. يطرح سؤالًا، فإذا أجابه أخرج من الجواب عشرة أسئلة، لا طلبًا للحقيقة، بل لإبقاء القلب داخل الدائرة. وكلما ظن الإنسان أنه بلغ نهاية الفكرة، أعادها الوسواس بصياغة أخرى.

وهنا تظهر حكمة الاستعاذة: أنت لا تحتاج إلى أن تنتصر فكريًّا في كل جدال يفتعله الوسواس، بل تحتاج أحيانًا إلى أن تقطع الحوار وتلوذ بالله. فليست كل فكرة تستحق جوابًا، ولا كل خاطر يستحق تحقيقًا، ولا كل احتمال يحتاج إلى أن تعيشه حتى نهايته.

هناك خواطر تضعف إذا أهملتها، وتقوى إذا منحتها انتباهك. تشبه دخانًا صغيرًا؛ فإن انشغلت بتتبعه امتلأت به الغرفة، وإن فتحت نافذة الذكر انصرف. ولهذا فإن الاستعاذة ليست جوابًا تفصيليًّا عن كل

وسوسة، بل رفضٌ لأصل سلطانها: لن أجعل هذا الخاطر مركز وجودي، ولن أمنحه حق إدارة قلبي.

فإذا جاءك الوسواس في العقيدة بما تكره، فلا تجعله دليلًا على فساد إيمانك؛ استَعِذ بالله، وانتهِ عن الاسترسال. وإذا جاءك في العبادة يطالبك بإعادة الوضوء والصلاة بلا يقين معتبر، فلا تسِمِّ استجابتك ورعًا؛ فقد يكون الورع الحقيقي أن تعرض عن الوسواس وتحفظ يسر الشريعة.

وإذا ألح عليك بسؤال: هل أخلصت أم لم تخلص؟ فلا تترك الخير كله خوفًا من نقص النية، بل أصلح

نيتك وامضِ. فالإخلاص لا يعني أن تظل تنظر إلى قلبك حتى تتوقف عن العمل، بل أن تنظر إلى الله وأنت تعمل، ثم تستغفره من النقص.

الاحتماء لا يعني الغياب عن الحياة

ليست الاستعاذة انسحابًا من العالم، ولا دعوةً إلى أن يعيش الإنسان وراء أسوار الخوف من الفتن. فرب الناس هو رب الحياة كلِّها، والاعتصام به يمنح العبد القدرة على خوضها بقلبٍ أكثر سلامة. إنه يدخل الأسواق ويخالط الناس، ويعمل ويحب

ويخاصم ويصالح، لكنه يحمل في داخله مرجعًا يعود إليه كلما اختلطت الأصوات.

إن الحمى الإلهي ليس مكانًا جغرافيًّا تهرب إليه من واجباتك، بل حالة عبودية ترافقك داخل الواجبات.

تستعيذ وأنت تعمل كي لا يتحول النجاح إلى كبر، وتستعيذ وأنت تدافع عن الحق كي لا يتحول الغضب إلى ظلم، وتستعيذ وأنت تنصح كي لا تتخذ النصيحة سلّمًا للشعور بالتفوق.

وتستعيذ وأنت تحب، لأن الحب نفسه قد يتحول من نعمة إلى استعباد إن تجاوز حدَّه. وتستعيذ وأنت

تحزن، لئلا يجعل الحزن العالم كله ظلامًا. وتستعيذ وأنت تفرح، لئلا تنسيك النعمة مُنعِمها.

فالشيطان لا يسكن الأشياء لذاتها، وإنما يتسلل إلى علاقة القلب بها: قد يحول المال من وسيلة إلى غاية، والمحبة من سكن إلى عبودية، والعلم من هداية إلى استعلاء، والحزن من شعور إنساني إلى قنوط.

والاستعاذة لا تخرجك من هذه الأشياء، بل تطهِّر صلتك بها.

حين يستعيذ القلب قبل اللسان

قد يسبق القلب لسانه إلى الاستعاذة، يشعر فجأةً بأن خاطرًا ما يبعده عن الله، فينقبض منه ويلجأ إلى ربه، حتى قبل أن تتشكل الكلمات. وقد يتحرك اللسان أولًا، ثم يستيقظ القلب على ما نطق. وكلا البابين رحمة؛ فرب كلمةٍ قالها اللسان بصدق الاستمرار حتى أيقظت قلبًا غافلًا.

غير أن كمال الاستعاذة أن تجتمع فيها الجوارح والوجدان: يقول اللسان، ويعي القلب، ويبتعد السلوك عن موضع الشر. فإذا استعذت من وسوسةٍ ثم بقيت

تحدق فيها باختيارك، فقد طلبت الحماية وأبطأت في دخول الحصن.

إن من صدق الالتجاء أن تُعين دعاءك بخطوة.

احذف ما يوقظ فيك الفتنة. ابتعد عن المجلس الذي يفسد قلبك. لا تكرر قراءة الكلمة التي تؤجج غضبك. لا تفتح الباب الذي عرفت من نفسك الضعف عنده ثم تقول: سأختبر قوتي.

ليست التقوى أن تقف دائمًا على حافة الهاوية وتثبت أنك لن تسقط، بل قد تكون التقوى أن تعرف ضعفك فتمضي في طريقٍ آخر. ويوسف عليه السلام،

مع نبوته وطهارته، لم يواجه الفتنة متكئًا على نفسه، بل قال: (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ). إنه اعتراف العارف بربه وببشرية نفسه: إن لم تعصمني، فليس لي عصمةٌ ذاتية.

الاستعاذة المتجددة

جاء الفعل مضارعًا: (أَعُوذُ)، لا كأنه حدثٌ وقع وانتهى. فالإنسان يحتاج إلى ربه في كل لحظة، والقلوب لا تعيش على استعاذة الأمس كما لا تعيش الأجساد على نَفَس الأمس. لكل يوم وساوسه،

ولكل مرحلة مداخلها، ورب فتنةٍ لم تؤثر فيك حين كنت شابًّا تأتيك من باب آخر حين تكبر.

قد يستعيذ الفقير من اليأس، فإذا أغناه الله احتاج أن يستعيذ من الطغيان. ويستعيذ المغمور من الشعور بالدونية، فإذا اشتهر احتاج أن يستعيذ من فتنة الصورة. ويستعيذ المبتدئ من ترك العمل، فإذا تقدم احتاج أن يستعيذ من العجب بعمله. وهكذا لا تنتهي الحاجة، وإنما تتبدل أشكالها.

ولهذا فإن الاستعاذة ليست كلمة طوارئ لا نتذكرها إلا عند الخوف، بل حالٌ ملازم للعبودية.

كل نعمة تحتاج إلى استعاذةٍ مما يفسدها، وكل طاعة تحتاج إلى استعاذةٍ من الرياء والعجب، وكل علم يحتاج إلى استعاذةٍ من الكبر والتحريف، وكل محبة تحتاج إلى استعاذةٍ من التعلق الذي يزاحم حق الله.

وكلما ازداد الإنسان قربًا من الله، لم يقل: لم أعد أحتاج إلى الحمى، بل ازداد إحساسًا بدقة الخطر وثمن القلب. فَمَن يحمل شيئًا نفيسًا يكون أشد حراسةً له، والمؤمن يحمل في صدره أعظم أمانة: معرفة الله ومحبته.

العودة أقصر مما تظن

يُوهمك الوسواس أحيانًا أن المسافة بينك وبين الله صارت بعيدة، وأنك تحتاج إلى رحلةٍ طويلة لتعود. لكن كلمة (أَعُوذُ) تهدم هذا الوهم؛ ففي اللحظة التي تصدق فيها بالالتجاء تكون قد وضعت قدمك على طريق الرجوع.

ليس بين القلب وربه مسافات المكان، وإنما حجب الغفلة والمعصية. فإذا انشق الحجاب بندمٍ صادق، أو استعاذةٍ واعية، أو دمعة افتقار، وجد العبد أن الله

قريب، وأن الباب الذي حسبه بعيدًا كان مفتوحًا بجواره طوال الوقت.

إن الله لا يملُّ من عودة عبده، وإن ملَّ العبد من تكرر ضعفه. ولا تضيق رحمته بكثرة ما تحمل إليه من كسورك. بل كلما جئت قلت: هذه نفسي قد غلبتني، وهذا قلبي قد شرد مني، وهذه الوسوسة قد أضنتني؛ ردَّك إلى نفسك أنقى مما جئت.

فقل: أعوذ، لا كمن يؤدي لفظًا عابرًا، بل كمن يهاجر بكليته إلى الله. قُلها حين تنكسر، وحين تقوى؛ حين تخاف من المعصية، وحين تخاف من العجب

بالطاعة؛ حين يطاردك ماضيك، وحين يغريك مستقبلك؛ حين يكون الشر واضحًا، وحين يأتيك في ثياب الخير.

قُلها وأنت تعلم أن الملاذ ليس فكرةً جميلة، بل ربٌّ يسمعك، وملكٌ يقدر عليك وعلى ما يخيفك، وإلهٌ إذا امتلأ به القلب لم تعد الوسوسة إلا عابرًا يطرق بابًا محروسًا:

(أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

الفصل الرابع

بِرَبِّ النَّاسِ... ترميمُ الإنسان من الداخل

حين أراد الله أن يعلِّم الإنسانَ إلى مَن يفرُّ من شر الوسواس، لم يقل له أولًا: أعوذ بالقوي، مع أن الله هو القوي؛ ولا: أعوذ بالقاهر، مع أنه سبحانه القاهر فوق عباده؛ بل فتح له بابًا أكثر قربًا ودفئًا، فقال: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

إنه باب الربوبية؛ الباب الذي يدخل منه العبد وهو يحمل ضعفه دون أن يخجل، وجرحه دون أن يخفيه، ونقصه دون أن يتجمل. فالرب هو الذي خلق، وربَّى، وأنعم، ودبَّر، وأصلح؛ لم يُنشئ الإنسان ثم يتركه وحيدًا أمام هشاشته، بل ظل يربّيه بنعمه الظاهرة والباطنة، ويقوده عبر الأيام، ويهيئ له أسباب النضج، ويفتح له بعد كل عثرةٍ بابًا جديدًا إلى الاستقامة.

والوسواس يفسد في الإنسان ما تتولاه الربوبية بالإصلاح. إنه يبعثر الداخل، والله يجمعه؛ ويشوِّه

نظرته إلى نفسه وربه والعالم، والله يعيد إليه ميزان الرؤية، ويدفعه إلى اليأس من إمكان التغير، والله يربِّيه بالتوبة تربيةً متجددة، حتى يخرج من ذنبه أعرف بضعفه وأشد تعلقًا بربه.

كأن المستعيذ يقول: يا من توليتَ تكويني حين لم أكن شيئًا مذكورًا، تولَّ تكوين قلبي من جديد كلما عبثت به الوساوس. ويا من أخرجتني من ضعف الطفولة طورًا بعد طور، أخرج روحي من ضعفها، ولا تكلني إلى نفسي في دروبٍ لا أعرفها.

الربوبية التي تسبق معرفتك بنفسك

قبل أن يعرف الإنسان اسمه، كان الله ربَّه. وقبل أن يفتح عينيه على وجوه أهله، أحاطته عناية الله في رحمٍ مظلم لا يملك فيه لنفسه نفعًا ولا دفعًا. تكوَّن عظمه ولحمه، وانتظمت أعضاؤه، وجرت في جسده أسرار الحياة، وهو لا يدعو بلسانه، لكن افتقاره كله كان دعاءً صامتًا تجيبه الربوبية.

ثم خرج إلى العالم ضعيفًا، لا يستطيع أن يطعم نفسه، ولا أن يصف ألمه، ولا أن يدرأ عنها أبسط الأخطار. فسخَّر الله له قلوبًا ترعاه، وثديًا يغذيه،

وأعينًا تسهر عليه. كان محمولًا بعنايةٍ لم يصنعها، ومحفوفًا برحمةٍ لم يستحقها بعمل، لأن الربوبية سبقت عمله واستحقاقه.

فكيف يظن، بعد أن كبر، أن الله يترك قلبه وحيدًا؟

إن الذي ربَّاك حين لم تكن تعي معنى الرعاية قادرٌ أن يربِّي فيك الآن ما لم يكتمل. والذي حفظ جسدك في ظلمات التكوين يعلم ظلمات الصدر التي تتسلل فيها الوساوس. والذي علَّمك النطق بعد العجز،

قادر أن يعلِّم قلبك كيف يجيب الأصوات التي تريد تضليله.

حين تقول: (بِرَبِّ النَّاسِ)، فأنت لا تستدعي عنايةً جديدةً لم تعرفها من قبل، بل تعود إلى العناية القديمة التي كانت تحيط بك قبل أن تعرف أنك محتاج إليها. تستحضر تاريخًا كاملًا من اللطف الخفي، وتقول لنفسك: لستُ ابن هذه اللحظة المضطربة وحدها؛ أنا عبد ربٍّ حملني عبر أطوار الضعف كلها، ولن تعجزه هذه العثرة.

لماذا ربُّ الناس؟

لم تقل السورة: بربي، مع أن المستعيذ يقولها عن نفسه؛ بل قالت: (بِرَبِّ النَّاسِ). فربك هو رب الإنسانية كلها، يعرف تكوينها، وضعفها المشترك، وما يختلج في صدورها. لم تكن أول إنسانٍ يمر به خاطرٌ مؤلم، ولا أول قلبٍ يرهقه الخوف، ولا أول مؤمنٍ يجد في نفسه ما يكره.

في هذه الإضافة عزاءٌ للإنسان الذي أوهمه الوسواس أن معركته الغامضة تعزله عن الجميع. قد ينظر إلى وجوه الناس فيحسبهم آمنين من الصراع، ثم

ينظر إلى صدره فيراه مزدحمًا، فيقول: لعل فيَّ خللًا لا يوجد في أحد. فتأتي كلمة الناس لتردَّه إلى حقيقته البشرية: لكل نفسٍ باب امتحان، ولكل قلبٍ لحظات ضعف، ورب الناس يعلم اختلاف هذه القلوب ولا يخلط بينها.

هو رب العالم الذي يسبح مطمئنًّا، ورب المؤمن الذي يطارده خاطرٌ يكرهه. رب القوي حين يقوى، ورب المنكسر حين يعجز حتى عن جمع كلماته في الدعاء. ورب من يجد لذة العبادة، ورب من يجاهد ليؤديها وقلبه ثقيل. لا تُقاس صلتك بالله دائمًا بما تشعر

به؛ فقد يكون تعبك في المقاومة عبادةً عظيمة لا يراها من ينظر إلى ظاهرك.

وإذا كان هو رب الناس، فلا تضيع حاجتك في زحام حاجاتهم. إن عناية الله لا تتوزع توزيع موارد البشر فتقل حصة الواحد بكثرة السائلين. يسمع ضجيج الصدور كلها دون أن يشغله قلب عن قلب، ويرى الخاطر وهو يتكون فيك قبل أن تجد له اسمًا.

التربية ليست تدليلًا دائمًا

حين نسمع اسم الرب، قد نستحضر النعم التي توافق رغباتنا، لكن الربوبية أوسع من العطاء الذي نحب صورته. فالله يربِّي بالمنح، ويربِّي بالمنع؛ يربِّي بالفتح، ويربِّي بالإغلاق؛ يربِّي بالطمأنينة، وقد يربِّي بالقلق الذي يكشف للإنسان مقدار حاجته إلى السكينة.

ليست كل شدةٍ غيابًا للعناية؛ فقد تكون الشدة نفسها أداةً من أدواتها. كم من إنسانٍ لم يعرف حقيقة قلبه إلا حين ضاقت به الأسباب! وكم من عبدٍ كان يتكئ على قوته، حتى جاءت العثرة فأرته أن توفيق الله

كان يحمله في كل نجاح! وكم من خسارةٍ أغلقت بابًا كان سيقوده إلى خرابٍ لا يراه!

لا يعني ذلك أن نجزم بحكمةٍ تفصيلية لكل ألم، أو نهوِّن على المتألم وجعه بعباراتٍ جاهزة؛ فالبلاء بلاء، والجرح يحتاج إلى رحمة. لكن المؤمن يوقن بأن ما يجري عليه لا يخرج عن ربوبية حكيمة، وإن خفيت عليه وجوه الحكمة.

والوسواس يستغل لحظات المنع ليشوِّه صورة الربوبية في القلب. يقول للعبد: لو كان الله يرعاك لما حُرمت. ويغفل عن أن الطفل قد يرى منع الدواء

ظلمًا، بينما يراه المربِّي رحمة. ونحن أمام حكمة الله أقصر نظرًا من طفلٍ يريد ما يؤذيه، غير أن غرور العقل يجعلنا أحيانًا نطالب بمعرفة القصة كاملةً ونحن لا نرى منها إلا مشهدًا واحدًا.

الاستعاذة بـ (رَبِّ النَّاسِ) تعيد الثقة إلى موضعها: قد لا أفهم ما يحدث، لكنني أعرف مَن يدبّره. وقد لا أرى الرحمة في هيئة الحدث، لكنني أعلم أن ربي لا يظلمني. وهذا اليقين لا يلغي الحزن، لكنه يمنع الحزن من التحول إلى سوء ظن بالله.

ترميم الصورة الداخلية

من أخطر ما تصنعه الوسوسة أن تحطِّم صورة الإنسان عن نفسه، لا لكي تجعله متواضعًا، بل لكي تجعله عاجزًا عن النهوض. تذكِّره بكل عثراته، وتخفي عنه كل مرةٍ قاوم فيها. تكبِّر نقصه حتى يحجب عنه إمكان الإصلاح، ثم تقول له: أنت هكذا، ولن تتغير.

أما الربوبية فتقول له إن الإنسان ليس قالبًا مغلقًا، بل كائنٌ يُربَّى. ما دام حيًّا فهو قابلٌ للنمو والتوبة والتبدل. وقد يتأخر نضجه في موضع، ويتكرر ضعفه في موضع، لكن باب التربية الإلهية لم يُغلق.

إن الله لا ينظر إليك بوصفك مجموع أخطائك فقط.

يعلم ما فيك من بذور الخير التي لم تنضج، ويرى

محاولاتك التي لم يرها الناس، ويعلم المعركة التي

خضتها كي لا تقع في خطيئةٍ يظن غيرك أن تركها

سهل. قد يراك الناس في لحظة سقوط، بينما يرى الله

الطريق الطويل الذي قاومت فيه قبلها، ويرى ندمك

بعدها، ويعلم أي إنسانٍ يمكن أن تصير إليه إن صدقت

معه.

ليس معنى هذا أن يتساهل الإنسان مع ذنبه، بل

أن يرفض تحويل الذنب إلى هوية. أنت أخطأت،

لكنك لست الخطأ ذاته. وضعفت، لكن الضعف ليس حكمًا أبديًّا. وفيك مرض، لكن لك ربًّا يداوي ويربِّي ويهدي.

الوسواس يريد أن يقول لك: بما أنك لم تبلغ الكمال فاترك الطريق. أما الرب فيفتح لك طريق العبودية من وسط النقص: تب، واستغفر، وتعلَّم، وابدأ ولو بقدمٍ مرتجفة. فالله لا يطالبك أن تأتيه بنسخةٍ كاملةٍ من نفسك، بل أن تأتيه صادقًا كي يربِّي فيك ما يحب.

حين يفسد الوسواس معنى التوبة

التوبة من أعظم آثار ربوبية الله لعبده؛ لأنها ليست مجرد إلغاءٍ للعقوبة، بل إعادة بناءٍ للإنسان. يردُّه الله بها من التيه، ويغسل قلبه من آثار الذنب، ويعلِّمه أن يرى ضعفه دون أن يعبده، وأن يرى رحمة ربه دون أن يغتر بها.

لكن الوسواس يحاول إفساد التوبة من طرفيها: قبل الذنب يهوِّن الأمر ويقول: ربك غفور. وبعد الذنب يعظِّمه ويقول: كيف يغفر لك؟ يستعمل حقيقة

المغفرة أولًا لإسقاط الهيبة، ثم ينكرها ثانيًا لإسقاط الرجاء.

أما معرفة رب الناس فتضع الرحمة في موضعها الصحيح: رحمته لا تشجع على البعد، بل تفتح طريق العودة. ومغفرته لا تجعل الذنب هينًا، بل تجعل اليأس منه جهلًا به. فالذي يعرف ربه يستحي أن يعصيه لأنه رحيم، ويرجو أن يغفر له لأنه رحيم.

وربما ربَّى الله عبدًا بتوبةٍ بعد عثرة أكثر مما ربَّى آخر بطاعةٍ أورثته العجب. ليس الفضل في الذنب، فالذنب شر؛ وإنما الفضل في ربٍّ يستطيع أن يستخرج

من انكسار العاصي صدقًا وتواضعًا وافتقارًا لم يعرفها قبل عثرته.

قد يعود العبد من خطيئته وهو أرحم بالمذنبين، وأقل ثقةً بنفسه، وأشد تعلقًا بالله. فيتحول الجرح، بفضل الرب، إلى نافذةٍ يدخل منها النور. وهذا من عجيب التربية الإلهية: لا لأن الشر صار خيرًا، بل لأن الله لا يعجزه أن يخرج من ظلامه عبدًا أبصر.

ربُّك يعلم إيقاع نموك

يريد الإنسان إصلاحًا سريعًا؛ يتوب اليوم، فيتوقع أن تختفي آثار سنواتٍ من العادة غدًا. فإذا وجد المعركة مستمرةً ظن أن توبته لم تُقبل أو أن التغيير مستحيل.

لكن التربية بطبيعتها تدرج: شجرة القلب لا تنضج بالصراخ عليها، بل بالسقي والصبر والضوء.

قد تسقط مرةً في موضع كنت تسقط فيه عشرًا، فتحتقر هذا التقدم لأنه لم يبلغ الكمال. وقد تنجح في رد الوسواس بعد ساعة، بعدما كان يستولي عليك يومًا

كاملًا، فلا ترى نعمة التقدم لأنك ما زلت تتمنى النجاة الفورية.

لكن ربك يرى الخطوات الدقيقة. يعلم أن مقاومةً صغيرةً في ظاهرك قد تكون انقلابًا عظيمًا قياسًا بتاريخك ومواضع ضعفك. لا تتخذ من بطء الطريق حجةً على تركه. فالثمرة التي تنضج ببطء قد تضرب جذورها أعمق في الأرض.

والمؤمن يجمع بين أمرين: لا يرضى عن نقصه، ولا يحتقر ما أنجزه بتوفيق الله. يشكر الخطوة، ثم يطلب ما

بعدها. يستغفر من العثرة، ثم لا يسمح لها أن تمحو من وعيه كل تقدم.

ذلك لأن الربوبية لا تعمل دائمًا في القفزات المدهشة؛ كثيرًا ما تعمل في التحولات الصامتة: فكرةٌ كنت تسترسل معها فصرت تقطعها، كلمةٌ كنت تقولها فصرت تحبسها، موقفٌ كنت تنتقم فيه فصرت تتأنى. قد لا يراك الناس وأنت تتغير، لكن الله يرى بناءك الداخلي حجرًا حجرًا.

رعاية الفرد في اسم الجماعة

قال: (رَبِّ النَّاسِ)، فجمع البشرية في كلمة، لكنه لم يُذِب الفرد في المجموع. بل يشعر كل قارئ أن الخطاب يصل إلى سريرته وحدها. وهذا من كمال الربوبية: يرعى الكل دون أن يغيب عنه الواحد، ويحيط بالجموع دون أن تتحول القلوب عنده إلى أرقام.

إن البشر يعرفون ظاهرك، ورب الناس يعرف قصتك كاملة. يعرف الكلمة التي آذتك وما استطعت الرد عليها، والخذلان الذي غيّر طريقتك في الثقة،

والفقد الذي ترك في داخلك غرفةً مغلقة. يعرف لماذا تتألم من أمرٍ يراه الآخرون بسيطًا؛ لأنهم يرون الحدث الحاضر، وهو يعلم الجروح القديمة التي أيقظها.

ولهذا لا تحتاج أمام الله إلى شرح نفسك كاملًا. قد تعجز عن ترتيب ما تشعر به، وتختلط عليك الأسباب، لكن ارتباكك مفهومٌ عنده. ربُّ الناس ربُّ ما عرفت من نفسك وما جهلت، وربُّ ما استطعت التعبير عنه وما بقي في صدرك بلا اسم.

وحين تعجز عن صياغة دعائك، يكفي أن تقول: يا رب. فالنداء القصير يحمل تاريخ حاجتك كله؛ لأنك

لا تخاطب من ينتظر منك المعلومات، بل من يعلم السر وأخفى.

العدو يبعثر والرب يجمع

من آثار الوسوسة أنها تجعل الإنسان شظايا: جزءٌ منه يعيش في الماضي، وجزءٌ يخاف المستقبل، وجزءٌ يراقب أعين الناس، وجزءٌ يخاصم نفسه. يتوزع وعيه بين أصواتٍ كثيرة، حتى لا يبقى فيه موضعٌ للسكينة.

أما اللجوء إلى رب الناس فيجمع هذه الأجزاء حول مركزٍ واحد. حين يكون الله غاية القلب، تعود

الأشياء إلى مراتبها: الماضي موضع اعتبارٍ وتوبة، لا سجن؛ والمستقبل موضع توكلٍ وعمل، لا هلع؛ والناس شركاء في البشرية، لا آلهةً نعيش تحت أحكامهم؛ والنفس أمانةٌ نربّيها، لا عدوًّا نجلده ولا وثنًا نقدسه.

إن التوحيد ليس قضيةً ذهنيةً فحسب، بل هو أعظم نظامٍ لوحدة الإنسان الداخلية. كلما تعددت معبودات القلب تمزق بينها؛ يريد رضا الله ورضا الناس ولو خالفوه، ويريد الحق وحظ نفسه، ويريد الآخرة والدنيا ولو تعارض طريقاهما. أما إذا استقر لله، أمكنه أن

يحب الأشياء دون أن يُستعبد لها، وأن يفقدها دون أن يفقد نفسه.

فالربوبية لا تحميك فقط من خاطرٍ مفرد، بل تعيد بناء هندسة قلبك كلها. تجعلك تعرف مَن أنت، ولمن أنت، وإلى أين تمضي. وحين تستقيم هذه الأصول، تفقد الوسوسة كثيرًا من قدرتها على التلاعب بالتفاصيل.

في كنف الرب

حين تقول: (أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، تذكَّر أنك تستعيذ بمن ربَّى الأنبياء في مواطن البلاء، وربَّى موسى عليه السلام بين خوف البحر وسطوة فرعون، وربَّى يوسف عليه السلام بين الجب والسجن والتمكين، وربَّى محمدًا ﷺ يتيمًا، ثم حمله بألطافه حتى بلَّغ الرسالة.

فالتربية الإلهية لا تمنع مرورك بالمراحل الصعبة، لكنها تضمن أن الطريق ليس عبثًا. قد لا تفهم في ظلمة الجب كيف تكون النجاة، ولا في ضيق السجن كيف يُصنع التمكين، ولا في لحظة اليتم كيف

تتشكل نفسٌ ستحمل نورًا للعالمين. لكن رب الناس يرى النهاية منذ البداية، ويدبر لك في المكان الذي تحسبه تعطيلًا طورًا من أطوار البناء.

لذلك لا تقل حين تؤلمك التربية: لقد تركني ربي. قل: لعلني في طورٍ لا أرى حكمته بعد. ثم لا تدَّعِ معرفة الغيب ولا تتكلف تفسير كل شيء، ولكن أحسن الظن بمن لم تنقطع عنك نعمه لحظةً واحدة.

فإذا أرهقك الوسواس، فلا تبدأ بالنظر إلى قوتك؛ ابدأ بالنظر إلى ربك. وإذا رأيت في داخلك خرابًا، فلا تيأس من الترميم؛ فإن الذي خلق القلب أول

مرة قادرٌ أن يحييه بعد مواته. وإذا طال عليك الطريق، فتذكر أنك لست مشروع نفسك وحدها، بل عبدٌ يتولاه ربُّه بالتربية ما دام صادقًا في الرجوع.

إن رب الناس لا يحرسك من الشر فقط، بل يبني فيك الإنسان الذي يستطيع أن يميزه ويقاومه. لا يكتفي بأن يبعد عنك الظلام، بل يوقظ فيك عينًا تحب النور. ولا يكتفي بأن يخرجك من العثرة، بل يعلِّم قدميك كيف تمشيان بعدها بتواضعٍ ويقظة.

وهكذا تصبح الاستعاذة عودةً إلى أصل الوجود كله: أنت مخلوقٌ له رب، وضعيفٌ له راعٍ، وتائهٌ له هادٍ، ومكسورٌ له جابر.

فلا يغرَّنك الوسواس بكثرة ما أفسد؛ فإنك تلجأ إلى مَن بيده الخلق والإصلاح. ولا يقنِّطك من نفسك؛ فأنت لست متروكًا لنقصك، بل في كنف:

(رَبِّ النَّاسِ).

الفصل الخامس

مَلِكِ النَّاسِ... سقوطُ ممالك الوهم

بعد أن يلجأ الإنسان إلى الله بوصفه (رَبِّ النَّاسِ)؛ يستحضر عنايته التي تربي وترعى وتصلح، ثم ينتقل به الوحي إلى مقامٍ آخر يحتاج إليه القلب في مواجهة الوسواس: (مَلِكِ النَّاسِ).

فالوسواس لا يكتفي بأن يزيِّن للإنسان خطأً عابرًا، بل يحاول أن يصنع في داخله ممالك صغيرة، لكل واحدةٍ منها عرشٌ وأوامر وحرس: مملكة الخوف، ومملكة الشهوة، ومملكة الصورة أمام الناس، ومملكة الماضي، ومملكة الحاجة إلى القبول. ثم يجعل الإنسان ينتقل بينها عبدًا ممزقًا، يخضع هنا لنظرة، وهناك لرغبة، وهنالك لوهم.

فتأتي الكلمة القاطعة: (مَلِكِ النَّاسِ).

ليس في الوجود ملكٌ على الحقيقة سواه، وما يملكه الخلق إنما هو عطاءٌ محدود، مؤقت، محكوم بإرادته.

وقد يبدو الإنسان مالكًا لماله أو منصبه أو قراره، لكنه لا يملك أن يضمن بقاء شيءٍ منها لحظةً واحدة. لا يملك قلبه أن يواصل نبضه بأمره، ولا عينه أن تحتفظ بنورها بقوته، ولا الغد أن يأتي على الصورة التي رسمها.

وإذا كان الله هو الملك، فإن كل سلطةٍ تخيفك محكومة، وكل يدٍ تطمع فيما عندها محدودة، وكل بابٍ مغلقٍ لا يخرج مفتاحه عن خزائن الله.

حين يحتاج القلب إلى السلطان بعد الرعاية

الربوبية تُشعر العبد بالدفء؛ فهو في رعاية من خلقه ورباَّه. أما الملك فيملأه بالهيبة والأمان؛ لأن الذي يرعاه لا تعجزه القوة التي تهدده. ليست عناية الله محبةً بلا قدرة، ولا رحمته رغبةً في إنقاذك تعترضها الموانع؛ إنه ربك وهو ملك كل شيء.

قد يحبك إنسانٌ صادق الحب، ثم يعجز عن دفع الضر عنك. وقد يفهم وجعك، لكنه لا يملك تغيير سببه. أما الله فيجمع العلم والرحمة والملك؛ يعلم

حاجتك، ويرحم ضعفك، ولا يخرج الذي تخشاه عن سلطانه.

وهنا يستريح القلب من أحد أشد مخاوفه: أن يكون الشر منفلتًا بلا سيادة، أو أن تكون الوسوسة قوةً تنازع الله مُلكه. كلا؛ فالشيطان مخلوق، عاجز، لا يتصرف خارج سلطان الله، ولا يملك أن يقهر العبد على معصية. إنه يوسوس ويزين ويعد، لكنه لا يستطيع أن يسلب الإنسان إرادته ثم يحاسبه الله على ما لم يختر.

قال الشيطان نفسه يوم تنكشف الحقائق: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي).

إنها شهادةٌ متأخرة تكشف طبيعة مملكته الكاذبة: لم يكن يملك القلوب، بل كان يطرق أبوابها؛ ولم يكن يجبر أصحابها، بل كانوا يفتحون له.

فإذا احتمى القلب بملك الناس، عرف أن العدو الذي يخشاه لا يحمل مفاتيحه، وأن سلطان الوسواس يضعف كلما استعاد الإنسان حريته في العبودية لله.

مملكةُ الخوف

من أوسع الممالك الوهمية التي يقيمها الوسواس في الصدر مملكة الخوف. لا الخوف الفطري الذي يحفظ الإنسان من الخطر، بل الخوف الذي يجاوز حجمه حتى يجعل المخلوق أكبر في القلب من حقيقته.

يقول للإنسان: إن تكلمتَ بالحق خسرتَ الناس. وإن رفضتَ الظلم أُغلقت في وجهك الأبواب. وإن تمسكتَ بمبدئك تُركت وحيدًا. ثم يظل يكرر الاحتمالات حتى يتحول البشر في النفس إلى آلهة صغيرة؛ يملكون الرزق والقبول والمستقبل.

فتأتي (مَلِكِ النَّاسِ) لتعيد موازين الوجود. هؤلاء الذين تخافهم ناس، والله ملك الناس. نفوسهم بيده، وأرزاقهم من عنده، وما يملكونه من النفع والضر محصورٌ في الحدود التي أقامها لهم. قد يؤذون، وقد يظلمون، وقد يملكون أسبابًا حقيقيةً للأذى؛ والإيمان لا ينكر الواقع. لكنه يمنع هذه الأسباب من أن تتضخم في القلب حتى تستولي على مقام الله.

ليس التوكل ادعاء أن المخلوق لا يضر مطلقًا، بل اليقين بأنه لا يضر استقلالًا عن مشيئة الله، وأن ما

يقع لا يخرج عن علمه وحكمته، وأن الظالم مهما اتسعت أدواته لا يصير ملكًا للوجود.

حين قال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، كانوا يصفون ظاهرًا واقعيًّا: البحر أمامهم وفرعون وراءهم. لكن موسى لم ينكر البحر ولا الجيش؛ وإنما أبصر فوق المشهد ملكًا أعلى، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. ثم جاء الطريق من حيث لا يعرف البحر أنه يستطيع أن يكون طريقًا.

إن استحضار ملك الله لا يعني أنك تعرف كيف ستأتي النجاة، بل أن تؤمن بأن صور الواقع ليست حدود القدرة الإلهية.

مملكةُ نظرات الناس

كم من إنسانٍ لم يعد يعيش حياته، بل يعيش الصورة التي يريد الآخرين أن يروها! يزن كلماته لا بميزان الحق، بل بميزان التصفيق؛ ويختار مواقفه لا بما يرضي الله، بل بما يحفظ مكانته؛ ويفعل الخير، ثم لا يكتمل فرحه به حتى يشهده الناس.

هذه عبودية ناعمة، لا تظهر فيها الأصنام من حجر، لكنها تُقام في زوايا القلب. يصبح رضا الناس ثوابًا، وذمهم عقوبة، ونظراتهم محكمةً نهائية. يفرح الإنسان بالطاعة إذا مُدح عليها أكثر مما يفرح بأن الله وفَّقه إليها، ويحزن لأن جهده لم يُذكر أكثر من حزنه إن دخله نقصٌ عند الله.

ويجد الوسواس هنا أرضًا خصبة؛ لأن الناس متقلبون، ومن علَّق قلبه بأحكامهم عاش متقلبًا بتقلبها. يرفعونه اليوم ويغفلون عنه غدًا، يمدحونه بالصفة نفسها التي قد يذمونه بها حين تتغير مصالحهم.

أما الذي يستعيذ بـ (مَلِكِ النَّاسِ) فيتذكر أن الناس الذين يطلب رضاهم عبيدٌ معه في المملكة نفسها، وأنهم لا يملكون له قيمةً حقيقيةً عند الله. قد يعرفون اسمه ولا يعرف الله صدقه في قلوبهم، وقد ينسونه بينما يُكتب عمله في الملأ الأعلى.

ليس المقصود أن يحتقر الإنسان آراء الناس، أو يهمل سمعته، أو يرفض النقد؛ فالمؤمن عاقل يستفيد من النصيحة ويحفظ عرضه. لكن الفرق بين أن تسمع رأيهم وبين أن تسلمهم حق تعريفك، وبين أن

تحسن صورتك بما لا يخالف الحق وبين أن تجعل الصورة إلهًا يأمرك وينهاك.

من عرف ملك الناس لم يعد عبدًا لمدحهم؛ يشكر الكلمة الطيبة، لكنه لا يبني عليها هويته. ويتألم من الظلم، لكنه لا يصدِّق كل افتراء. يعرف أن الحكم الأخير ليس في أفواه العابرين، بل عند الملك الذي يعلم السرائر.

مملكةُ الشهوة

لا تأتي الشهوة دائمًا وهي تقول: اعبدني. بل تأتي في صورة حاجةٍ ملحَّة، وتوهم الإنسان أن حياته ناقصةٌ دونها، وأن تأجيلها عذاب، وأن حدود الله حواجز بينه وبين السعادة. فإذا استجاب لها مرةً بعد مرة، انتقلت من رغبة إلى سيدة، وصار هو خادمًا يبحث لها عن الإشباع والتبرير.

وهنا يختبر القلب معنى (مَلِكِ النَّاسِ): مَن الذي يصدر الأمر الأخير في داخلك؟ أهو الله أم الرغبة؟ هل تستطيع أن تقول لنفسك: تريدين هذا، لكن

الملك نهى عنه؟ أم أن إرادة النفس تحولت إلى قانونٍ لا يُناقش؟

ليس التحرر أن يفعل الإنسان كل ما يشتهي؛ فقد يكون المندفع وراء كل رغبةٍ أضعف الناس حرية، لأنه لا يملك أن يقول لها: لا. الحر هو الذي يملك شهوته ولا تملكه، ويضعها في موضعها من الفطرة دون أن يسمح لها باعتلاء عرش القلب.

والإسلام لا يحارب حاجات الإنسان، بل يحررها من الفوضى، ويفتح لها أبوابًا طيبة، ويمنعها من أن تهدمه باسم إشباعه. فالطعام نعمة حتى يصير نهمًا،

والمال خير حتى يتحول إلى غاية، والمحبة سكن حتى تصير عبودية، والجمال آية حتى يصبح صنمًا.

عندما يستعيذ المؤمن بملك الناس، فهو يطلب أن يبقى العرش الداخلي لله، وأن تظل الرغبات رعيةً منضبطةً تحت حكمه، لا ملوكًا متنازعةً تمزق القلب.

مملكةُ الماضي

قد يمضي الحدث، لكن يبقى سلطانُه في النفس.

كلمة قيلت قبل أعوام ما زالت تأمر شعورك كلما تذكرتها، وإساءةٌ انتهى زمنها ما زالت تحدد قدرتك

على الثقة، وخطيئةٌ تبت منها ما زالت الوسوسة تستخدمها لتمنعك من السير.

وهكذا يتحول الماضي إلى ملكٍ على الحاضر؛ لا لأنه موجود، بل لأن القلب يمنحه في كل يوم حق إعادة الحدث.

يقول الوسواس: ما حدث لك هو تعريفك النهائي. أنت ابن الخذلان، وابن الفشل، وابن الخطيئة. ولن تستطيع أن تكون إلا ما صنعته بك تلك اللحظة.

لكن الله ملك الناس، وهو ملك ماضيك وحاضرك ومستقبلك. لا يملك الماضي أن يحكم عليك بحكمٍ

أبدي؛ لأن التوبة تغير معنى الذنب، والصبر يغير أثر البلاء، والوعي يحول الجرح من قيد إلى بصيرة.

لا يعني الشفاء أن تنسى كل ما آلمك، ولا أن تتظاهر بأن الضرر لم يقع؛ وإنما أن يسقط عن الماضي عرشه. تتذكره، لكنه لا يأمرك. تتألم أحيانًا، لكنه لا يكتب لك كل قراراتك. يصبح فصلًا من قصتك، لا المؤلف الوحيد لها.

وربما بقيت ندبة؛ لكن الندبة لا تعني أن الجرح ما زال ينزف، بل قد تكون شاهدًا على أن الله حملك عبر ما ظننت أنك لن تعبره.

مملكةُ القلق على المستقبل

كما يستعبد الوسواس الإنسان بالماضي، يستعبده بمستقبلٍ لم يأت. يرسم له عشرات النهايات المؤلمة، ثم يجعله يعيشها جميعًا في خياله، فيدفع ثمن مصائب لم تقع، ويستهلك قوة اليوم في مواجهة أشباح الغد.

إن التخطيط حكمة، والحذر مشروع، لكن القلق يختلف عنهما؛ التخطيط يسأل: ماذا أستطيع أن أفعل؟ أما القلق فيعيد السؤال نفسه بعد نفاد كل ما يمكن فعله، كأنه يريد من الإنسان ضمان المستقبل، وهذا ما لا يملكه بشر.

حين تقول: (مَلِكِ النَّاسِ)، تضع الغد في يد مالكه. تعمل اليوم، وتأخذ بالأسباب، وتستشير، ثم تعترف بأن المستقبل ليس أرضًا تحت سيطرتك. إن جاءك فسيأتي ومعه ربُّه، ولن تُطالب أن تواجه غدًا بقوة اليوم وحدها؛ فكما يخلق الله الحدث يخلق للعبد من العون والصبر ما لم يكن يملكه قبل وقوعه.

كم من إنسانٍ قال: لو وقع هذا الأمر فلن أحتمل، ثم وقع فوجد في قلبه قوةً لم تكن موجودة ساعة التخيل! لأن الله لا يمنحك دائمًا صبر المصيبة قبل نزولها؛ يعطيك إياه حين تحتاج إليه. أما الوسواس

فيريك البلاء القادم مجردًا من معونة الله، فيبدو فوق الاحتمال.

استحضار الملك يعيد إلى المشهد ما حذفه القلق: ربُّ الغد موجودٌ في الغد.

الملك الذي لا يحتاج إلى ظلم

ملوك الأرض قد يظلمون لأن ملكهم ناقص؛ يخافون زواله، فيبطشون، ويحتاجون إلى ما في أيدي الناس، فيطمعون. أما ملك الله فكامل، لا يزيده

طاعة الطائعين، ولا تنقصه معصية العاصين. لا يظلم لأنه غنيٌّ عن الظلم، وقد حرَّمه على نفسه.

وهذه الحقيقة ضرورية في معركة الوسواس؛ إذ قد يلقي الشيطان في القلب شبهاتٍ حول أقدار الله: لماذا وقع هذا؟ ولماذا مُنعت؟ ولماذا تأخرت الإجابة؟ ثم يحاول أن ينقل العبد من عدم الفهم إلى سوء الظن، كأن ما لم يعرف حكمته صار عبثًا أو ظلمًا.

لكن المؤمن يفرِّق بين قوله: لا أفهم، وقوله: لا حكمة. الأول اعترافٌ بحدود العقل، والثاني حكمٌ على علم الله من نافذةٍ ضيقة. ليس مطلوبًا أن تتكلف

تفسيرًا لكل قدر، ولكن مطلوب أن تعرف الملك: كامل العلم، كامل العدل، واسع الرحمة، منزه عن العبث.

والطمأنينة لا تأتي دائمًا من فهم تفاصيل القصة، بل من الثقة بمؤلفها. قد تبقى الأسئلة، لكن قلبك لا يعود متهمًا لربه. يقول: يا ملك الناس، أنا لا أرى إلا هذه اللحظة، وأنت ترى مآلاتها كلها؛ فثبِّتني حتى ينكشف لي ما تشاء، أو ألقاك مؤمنًا بحكمتك وإن بقي وجهها غائبًا عني.

حين يسقط الطغاة في الداخل

ليس كل طاغيةٍ خارج الإنسان؛ فقد يكون في داخله طاغيةٌ اسمه الكبر، يريد من العالم أن يدور حوله. يغضب إذا لم يُقدَّر، ويحتقر من خالفه، ويرى الاعتذار هزيمة، ويطالب لنفسه بما لا يمنحه للآخرين.

وهذا الطاغية الداخلي لا يسقط إلا حين يعرف القلب أن الله هو الملك. فأنت لست مركز الوجود، ولا حقُّك هو الحق الوحيد، ولا ألمك يبيح لك ظلم غيرك. أنت عبدٌ بين عباد، لك كرامتك وعليك

واجب العدل، وتُعرض خصوماتك كلها على ميزانٍ ليس ملكًا لهواك.

وقد يدخل الكبر حتى إلى العبادة؛ فيرى الإنسان نفسه أقرب إلى الله من الناس، ثم يمنحه هذا الشعور إذنًا خفيًّا في احتقارهم. وهنا تتحول الطاعة، التي كان ينبغي أن تزيده عبودية، إلى عرش للنفس.

لكن مَن وقف أمام ملك الناس رأى نفسه والآخرين جميعًا رعيةً تحت الحكم ذاته؛ لا يملك لأحدٍ جنةً ولا نارًا، ولا يعلم خاتمة نفسه فضلًا عن خواتيمهم. إن كان عنده فضلٌ فمن عطية الملك، وإن

رأى مبتلىً فليسأل الله العافية، ولا يجعل من عثرته منصةً يتعالى عليها.

الحرية التي تولد من العبودية

تبدو العبودية في التصور المادي نقيضًا للحرية، لكن سورة الناس تكشف أن العبودية لله هي الطريق الوحيد للتحرر من عبوديات لا تنتهي. فمن لم يخضع للملك الحق توزعته ملوك الباطل: رأي الناس، وشهوة النفس، وخوف الفقد، وسطوة العادة.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا مرجع أعلى؛ فإن لم يكن الله مرجعه صار هواه مرجعه، أو جماعته، أو عصره، أو مصلحته. والفرق أن الله يريد تحريره مما يهينه، أما هذه الآلهة الصغيرة فلا تشبع؛ كلما أطاعها طلبت المزيد.

رضا الناس غاية لا تُدرك؛ لأن إرضاء بعضهم قد يسخط آخرين. والشهوة لا تبلغ نقطة تقول فيها: كفاني إلى الأبد. والمال كلما امتلأت به اليد فتح للنفس حاجاتٍ جديدة. أما العبودية لله فتمنح القلب مركزًا

ثابتًا: يعرف ما يريد، ولماذا يرفض، وإلى أي ميزانٍ يحتكم.

وحين يتحرر القلب لله، لا يعني أنه لا يتأثر بالناس أو الرغبات، بل لا يمنحها السيادة النهائية. يحب ويخاف ويرجو، لكنها مشاعر تتحرك تحت نور الإيمان، لا ملوكًا تحكمه من وراء الستار.

بين يدي الملك

عندما تقول: (مَلِكِ النَّاسِ)، دع الكلمة تمر على ممالك الوهم في صدرك واحدةً واحدة. ما الذي تخافه

كأنه يملك مصيرك؟ ومَن الذي تطلب رضاه ولو خسرت نفسك؟ وأي رغبةٍ لا تستطيع ردها؟ وأي ذكرى ما زالت تصدر أوامرها إلى حاضرك؟

ثم ضع هذه الأشياء كلها في حجمها: مخلوقات وأسباب وخواطر، والله فوقها ملكًا لا ينازعه أحد.

لا يعني ذلك أن المشاعر ستسقط دفعة واحدة، لكن عروشها تبدأ بالتصدع كلما استقر التوحيد. قد يبقى الخوف، لكنه لا يعود إلهًا. وقد تبقى الرغبة، لكنها لا تصير أمرًا. وقد يؤلمك كلام الناس، لكنه لا يعيد تعريفك.

إن الوسواس يريد أن يقنعك بأن العالم موزع بين قوى كثيرة، وأن عليك أن ترضيها جميعًا كي تنجو.

أما السورة فتجمع الكون كله تحت حقيقةٍ واحدة: له ملك السماوات والأرض، وهو ملك الناس.

فإذا امتلأ القلب بهذه الحقيقة، عرف أن الحماية ليست مجرد عنايةٍ تحنو عليه، بل سلطانٌ لا يُغلب يحوطه. وأنه حين يفر إلى الله لا يفر إلى ركنٍ ضعيف، بل إلى الملك الذي بيده العدو، والخاطر، والقلب، والمصير.

وعندئذ يستطيع أن يمضي في الأرض مرفوع الروح،

لا لأنه لا يخاف، بل لأنه يعرف أن ما يخافه مملوك.

ولا لأنه يملك الدنيا، بل لأنه عبد:

(مَلِكِ النَّاسِ).

الفصل السادس

إِلَهِ النَّاسِ... لِمَنْ يَكُونُ الْقَلْبُ؟

بعد أن عرَّفت السورةُ المستعيذَ بربٍّ يرعاه ويربِّيه، وملكٍ يحكمه ويحميه، صعدت به إلى قمة المعنى كله: (إِلَهِ النَّاسِ).

فالله لا يريد من الإنسان أن يعرف عنايته وقدرته فحسب، بل أن يمنحه قلبه. الربوبية توقظ معنى الافتقار، والملك يوقظ الهيبة، والألوهية تجمع المحبة والخضوع والرجاء والتعظيم والإنابة. إنها ليست مجرد

الاعتراف بأن الله موجود أو قادر، وإنما أن يصير هو المقصود الأعلى، الذي تتجه إليه الروح، وتحتكم إليه الإرادة، وتستمد منه الأشياء قيمتها ومكانها.

وهنا يتضح أن معركة الوسواس أعمق من فعلٍ صغير يريد أن يوقع الإنسان فيه؛ إنها معركة على جهة القلب. فمن يملك محبته الكبرى؟ ولمن يخضع في لحظة التعارض؟ ومَن الذي يحدد الخير والشر في وعيه؟ وأي صوتٍ يملك الكلمة الأخيرة حين تتنازع داخله الرغبة والوحي؟

فالشيطان لا يطلب دائمًا من الإنسان أن ينكر الله بلسانه؛ قد يكفيه أن يبقى اسم الله في اللسان، بينما تتوزع عبودية القلب بين آلهة خفية: إله الصورة، وإله الهوى، وإله الجماعة، وإله المال، وإله الانتصار للنفس. ومن هنا جاءت (إِلَهِ النَّاسِ) إعلانًا لتحرير أعمق نقطة في الإنسان: لا معبود بحق إلا الله، ولا جهة تستحق الخضوع المطلق غيره.

الله ليس وسيلةً إلى شيءٍ آخر

قد يلجأ الإنسان إلى الله لأنه يريد النجاة من بلاء، أو الحصول على نعمة، أو السكينة من خوف؛ وهذا كله من العبودية المشروعة، فالله أمر عباده أن يدعوه ويسألوه. لكن الألوهية ترفع القلب إلى معنى أسمى: ألا يكون الله مجرد طريقٍ إلى الأشياء، بل يكون هو الغاية التي تُطلب الأشياء في ضوئها.

قد يدعو العبد الله ليمنحه ما يحب، ثم ينضج إيمانه حتى يحب ما يقربه من الله، وإن خالف بعض رغباته. ينتقل من سؤال: كيف أحصل على مرادي؟

إلى سؤالٍ أرفع: كيف يكون مرادي مستقيمًا مع مراد الله الشرعي؟ لا يعود رضا الله تفصيلًا داخل الخطة، بل يصبح هو مركز الخطة كلها.

وهنا تتطهر العبادة من روح المقايضة الخفية: أصلي لكي تتحقق رغبتي، وأتصدق لكي يُدفع عني البلاء، وأطيع ما دامت الحياة تسير كما أحب. فإذا تأخر المراد اضطربت صلتي بالله، كأن العبادة كانت ثمنًا لنتيجة دنيوية محددة.

أما الذي عرف إله الناس فإنه يعبد الله لأنه الله، لأنه المستحق للمحبة والتعظيم والطاعة، سواء انفتحت

له الأبواب التي يريدها أم بقي بعضها مغلقًا. يسأله حاجاته، ويبكي بين يديه، ويرجو الفرج، لكنه لا يجعل تحقق أمنيته شرطًا لاستمرار عبوديته.

إن أعظم العطايا ليست دائمًا ما يضعه الله في يدك، بل ما يقيمه في قلبك من معرفةٍ به. وربما منعك شيئًا طلبته، ثم أعطاك في أثناء المنع يقينًا لو خُيِّرت بينه وبين الشيء لاخترت اليقين. فالنعمة التي توصلك إلى الله خير، لكن الله أعظم من كل نعمة.

قبلةُ القلب

للجسد قبلةٌ يتجه إليها في الصلاة، وللقلب قبلةٌ تتجه إليها رغباته ومخاوفه وآماله. وقد يقف الجسد تجاه الكعبة، بينما يطوف القلب حول شيءٍ آخر؛ ينتظر منه السعادة، ويخشى فقده كأنه نهاية الوجود، ويرجو قربه أكثر مما يرجو قرب الله.

والألوهية تعيد القلب إلى قبلته. لا تمنعه من محبة أهله، ولا من طلب الرزق، ولا من الفرح بالجمال والنجاح، لكنها تمنع هذه الأشياء من أن تحتل المركز الذي لا يليق إلا بالله. فكل محبوبٍ سوى الله يُحب

في حدوده، ويُفقد فيبقى الإنسان عبدًا لله؛ أما إذا صار هو المعنى الذي بدونه تنهار الروح كلها، فقد تجاوز قدره في القلب.

إن الإنسان لا يتألم دائمًا من فقد الشيء ذاته بقدر ما يتألم من المكانة المطلقة التي أعطاها له. قد يجعل القبول الاجتماعي دليلًا وحيدًا على قيمته، فإذا رُفض شعر أنه عدم. وقد يجعل شخصًا معينًا مصدر المعنى كله، فإذا ابتعد ظن أن الحياة فقدت معناها. وقد يجعل الإنجاز هويته، فإذا فشل في تجربةٍ حكم على وجوده كله بالفشل.

حين يكون الله إله القلب، تتوزع الأشياء في مواضعها الصحيحة: يحب الإنسان دون أن يؤلِّهه، وينجح دون أن يعبد نجاحه، ويُحرم دون أن يفقد معنى وجوده. لأن المعنى الأكبر لم يكن مودَعًا في هذه الأشياء حتى يزول بزوالها.

كيف يصنع الوسواس آلهةً صغيرة؟

لا يقول الوسواس للإنسان غالبًا: اتخذ هذا الشيء إلهًا. فهذه العبارة عاريةٌ قد يفزع منها قلب المؤمن. لكنه يبدأ بتضخيم الشيء في الوعي؛ يجعلك تفكر فيه

دائمًا، وتقيس قيمتك به، وتخالف الحق لأجله، وتغضب من الله إن لم يمنحك إياه.

وهكذا يكبر الشيء حتى يصير، من حيث لا تشعر، مركز الطاعة والخوف والرجاء. قد يكون مالًا، أو منصبًا، أو شخصًا، أو جماعةً، أو شهرةً، أو حتى فكرة الإنسان عن نفسه.

ومن أخفى هذه الآلهة: إله الصورة. لا يعود المرء مهمومًا بأن يكون صالحًا، بل بأن يبدو صالحًا. لا يسأل: ما حقيقة عملي؟ بل: كيف سيراه الناس؟ وقد يتخلى عن خطأٍ لا لأن الله يكرهه، بل لأنه يهدد

صورته، ويصر على خطأٍ آخر لأن الاعتراف به يجرح كبرياءه.

وهناك إله الانتصار للنفس؛ يخاصم الإنسان من أجل حق، ثم يستمر في الخصومة بعد اتضاح الحق لأن نفسه لا تحتمل التراجع. يصبح الانتصار أهم من العدالة، وآخر كلمةٍ أهم من سلامة القلب. وربما استعمل آيات الله وأقوال العلماء وقودًا لمعركةٍ لم تعد لله، بل للنفس التي تريد أن تثبت أنها لم تُهزم.

وهناك إله الجماعة؛ حين يرى الإنسان الحق من خلال انتمائه، فما فعله أصحابه وجده قابلًا للتبرير، وما

فعله خصومه رآه جريمةً لا تُغتفر. لا تعود الجماعة وسيلةً لنصرة الحق، بل يصبح الحق ما نصر الجماعة. وهنا تتبدل القبلة في صمت، مع بقاء الشعارات الدينية عالية.

وتأتي (إِلَهِ النَّاسِ) لتكسر هذه الأصنام الباطنة: ليس هواك إلهك، ولا صورتك، ولا قومك، ولا جماعتك، ولا مَن تحب. الله وحده هو الذي تُردُّ إليه الموازين، ولو جاء حكمه على خلاف مصلحة النفس وأهواء القريب والبعيد.

العبادة أوسع من الطقوس

حين نسمع لفظ العبادة، قد يسبق إلى الذهن الصلاة والصيام والذكر، وهي من أعظم العبادات. لكن الألوهية تمتد إلى طريقة النظر والاختيار والمحبة والخوف. فمن العبادة أن تقول الحق حين يكلِّفك، وأن تعدل مع من تكره، وأن تكفَّ يدك حين تقدر، وأن تردَّ الفضل إلى الله حين يصفق الناس لك.

وقد يصلي الإنسان لله، ثم يخضع في قراراته لهواه؛ فيكون في حياته انفصال بين موضع السجود وموضع الاختيار. أما إله الناس فيطلب توحيد الإنسان كله:

أن يكون الذي يسجد له الجسد هو نفسه الذي تخضع له الإرادة، والذي يذكره اللسان هو نفسه الذي يحكم الخصومة والشهوة والطموح.

ليست العبادة أن تخرج من الحياة إلى المحراب، بل أن تأخذ نور المحراب إلى الحياة. أن يظهر سجودك في تواضعك، وصيامك في قدرتك على كبح شهوتك، وذكرك في يقظتك عند الخاطر، وإيمانك بالآخرة في نزاهتك حين تغيب عيون الناس.

إن أعظم برهان على استقرار الألوهية في القلب لا يظهر فقط حين توافق الطاعةُ رغبةَ الإنسان، بل حين

تتعارضان. هناك ينكشف الملك الحقيقي: ماذا تفعل حين تستطيع الوصول إلى ما تريد بطريقٍ لا يرضي الله؟ وأيهما تقدم حين يقف رضا الخلق في جهة ورضا الله في جهة؟

المحبة التي تحرِّر ولا تستعبد

الله هو الإله؛ أي المألوه الذي تتأله له القلوب محبةً وتعظيمًا. غير أن محبة الله تختلف عن كل محبة؛ فمحبة المخلوق قد تستنزفك إن جاوزت حدها، أما محبة الله فتعيدك إلى نفسك أنقى وأرحم وأقوى.

كلما أحببت الله على الحقيقة، أحسنتَ محبة الناس؛ لأنك لا تعود تطلب منهم أن يمنحوك ما لا يملكون: الأمان المطلق، والفهم الكامل، والبقاء الذي لا ينقطع. تحبهم كبشر، وتغفر نقصهم، ولا تحمِّلهم عبء أن يكونوا آلهةً صغيرةً في حياتك.

كم تتعب العلاقات حين يطلب كل طرفٍ من الآخر أن يملأ فراغًا لا يملؤه إلا الله! يريد منه ألا يخطئ، وألا يتغير، وأن يفهم صمته دائمًا، وأن يبقى مصدر الطمأنينة في كل لحظة. فإذا عجز الإنسان ـ وهو لا بد عاجز ـ تحول الحب إلى عتابٍ دائم.

أما القلب المتصل بالله فيأتي إلى الناس ممتلئًا بأصله، لا متسولًا لمعناه كله منهم. يحتاج إليهم ويأنس بهم ويتألم لفقدهم؛ فهو بشر. لكنه لا يجعلهم الرب الذي إذا غاب ضاع، ولا الملك الذي إذا غضب انهار، ولا الإله الذي يُطاع في كل شيء.

محبة الله لا تسرق منك العالم، بل تمنحك القدرة على محبته دون أن تعبده.

الرجاء الذي لا يتحول إلى أمنٍ كاذب

من عبادة القلب لله أن يرجوه. لكن الوسواس قد يحرف الرجاء، فيجعله تبريرًا للتقصير: الله غفور، فلا بأس أن أؤجل التوبة؛ والله رحيم، فلا حاجة إلى مجاهدة النفس. وهنا لا يكون الإنسان راجيًا، بل مغترًّا.

الرجاء الصادق يدفع إلى الله، لا بعيدًا عنه. من يرجو لقاء محبوبه يمشي نحوه، ومن يرجو المغفرة يطرق أبوابها. أما من يصر على الهرب ثم يسمي أمنيته رجاءً، فقد استعمل الرحمة ليحجب نفسه عنها.

وفي الطرف الآخر يحرف الوسواس الخوف حتى يصير قنوطًا. يذكِّر الإنسان بجلال الله دون رحمته، وبذنوبه دون فتح باب التوبة، حتى يخيل إليه أن العبادة لن تنفعه. وكأن الشيطان يتنقل بالقلب بين أمنٍ يجرِّئه على الذنب ويأسٍ يمنعه من العودة.

أما عبادة إله الناس فتجمع الخوف والرجاء في ميزان حي: يخاف العبد فلا يستهين، ويرجو فلا ييأس؛ ويحب الله فيحمله الحب على القرب. فإذا زلَّ لم يقل: لا شيء يضر، ولم يقل: لا شيء ينفع؛ بل قال: لي ربٌّ عظيم العقاب واسع المغفرة، فأفر منه إليه.

حين تصبح الطاعة وطنًا

في بداية الطريق قد يشعر الإنسان أن الطاعة تكليفٌ ثقيل يعارض رغباته، وأن المعصية حرية. لكنه كلما عرف الله، انتقلت الطاعة من كونها عبئًا خارجيًّا إلى كونها وطنًا داخليًّا. لا يصلي فقط لأنه أُمر، بل لأنه يجد في الصلاة موضع عودته. ولا يترك الحرام لأنه يخشى العقوبة وحدها، بل لأنه لا يريد أن يحمل إلى قلبه ما يحجبه عن محبوبه.

وهذه منزلة تتدرج فيها النفوس؛ فلا يُحتقر من بدأ بطاعة الخوف، ولا من جاهد نفسه دون أن يجد لذة.

فالرب يربّي عباده على أطوار. لكن الغاية أن تتحول العبادة من مجرد حركةٍ تؤديها الجوارح إلى علاقةٍ تحيا بها الروح.

عندئذ يفهم العبد أن الأمر الإلهي ليس منافسًا لسعادته، بل دليلًا عليها؛ وأن الله الذي خلق النفس أعلم بما يفسدها ويصلحها. قد ترغب في شيءٍ بشدة، لكن رغبتك لا تعني أنه خير لك. فالعطشان قد يرى السراب ماءً، ولا يتحول السراب إلى ماءٍ بقوة عطشه.

قولك: (إِلَهِ النَّاسِ) يعني أن تمنح علم الله الثقة حين تخالفه رغبتك، وأن تقول: يا رب، أنت أعلم بي مني، وقد أحب شيئًا يجرحني وأكره شيئًا يداويني؛ فاجعل هواي تابعًا لهداك.

السجود الداخلي

قد يسجد الجسد بينما تبقى النفس واقفةً بكبريائها. والسجود الذي تريده الألوهية ليس انحناء الجبهة وحدها، بل انحناء الإرادة. أن تتلقى الحق فلا ترده لأن قائله أصغر منك، وأن تعتذر حين تخطئ، وأن

تتراجع عن رأيٍ تعلقت به إذا ظهر لك الصواب في غيره.

من أشق العبادات على النفس أن تقول: كنت مخطئًا. لأن هذه الكلمة تهدم الصنم الذي بنته في داخلها من صورة الكمال. لكنها عند الله رفعة؛ فالذي يتواضع للحق لا يصغر، بل يتحرر من عبودية ذاته.

والوسواس يعلم أن الكبر بابٌ عظيم؛ به خرج إبليس من الطاعة حين قال: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ). كانت المشكلة في ترتيب القلب قبل أن تكون في حركة

الجسد: رأى نفسه، ورأى أصله، وقاس الأمر الإلهي بمقياس تفوقه المتوهم.

وكلما قال الإنسان في داخله: أنا خيرٌ منه، اقترب من أصل ذلك الداء، وإن اختلفت الصور. قد يكون أعلم أو أكثر عبادةً أو أنقى سمعة، لكن الفضل الذي لا يورثه شكرًا وتواضعًا يتحول إلى حجاب.

أمام إله الناس تسقط المقارنات المتعالية؛ فالكل عبيد، والقلوب لا يعلم خواتيمها إلا الله. قد ترى من العاصي لحظة سقوط، ويعلم الله له توبةً ترفعه؛ وقد

ترى من نفسك طاعةً، ويعلم الله فيها من حظ النفس ما لم تدركه.

قلبٌ واحد لا يحتمل آلهةً كثيرة

حين تتعدد الجهات العليا في القلب، يتمزق الإنسان. يريد أن يرضي الله والناس معًا، حتى حين يتناقض الطريقان. ويريد أن يحفظ الحق ويحفظ كبرياءه، ولو استلزم حفظ أحدهما إسقاط الآخر. ويريد الآخرة، لكن بشرط ألا يخسر شيئًا من راحة الدنيا.

وهكذا يعيش في صراعٍ متواصل؛ لأن الآلهة الخفية كثيرة المطالب متناقضة الأوامر. أما التوحيد فيجمع القلب: غايتي رضا الله، وما سواه يُرتب في ضوء هذه الغاية. قد أخطئ في التطبيق وأضعف في الطريق، لكن البوصلة لا تتعدد.

وهذا الجمع هو أصل السكينة. ليس معنى السكينة أن تختفي الصراعات، بل أن تعرف في أثناء الصراع إلى أي جهةٍ تعود. فإذا تنازعتك الأصوات، سألت: ما الذي يرضي إله الناس؟ وحين تعرف، قد تجد التنفيذ شاقًّا، لكن الحيرة تنتهي.

فالطريق الواحد، وإن كان صعبًا، أرحم من ألف طريقٍ نتنازع القدم.

لِمَنْ يكون قلبك؟

هذا هو السؤال الذي تضعه (إِلَهِ النَّاسِ) أمام الإنسان: لمن يكون قلبك حين لا يراك أحد؟ مَن الذي تشتاق إليه إذا هدأ الضجيج؟ وإلى مَن تفر حين تسقط الأقنعة؟ وما الشيء الذي إن تعارض مع أمر الله قدَّمته؟

ليست الإجابة دعوى يقولها اللسان مرة، بل حياةٌ من الاختبارات الصغيرة. في كل اختيار يتحدد شيءٌ من جهة القلب، وفي كل توبة يعود إلى قبلته. وقد لا يبلغ الإنسان كمال الإخلاص، لكنه يظل ينزع الآلهة الصغيرة من داخله واحدةً بعد أخرى، ويعيد العرش لصاحبه.

وحين يضعف لا ييأس؛ لأن الذي أمره بإخلاص العبادة هو نفسه رب الناس الذي يربّيه، وملك الناس الذي يحميه، وإله الناس الذي لا يرده إذا عاد.

وهكذا اجتمعت الأسماء الثلاثة لتصنع حصنًا كاملًا:

ربٌّ لا يهملك، وملكٌ لا يعجز، وإلهٌ لا يستحق قلبك سواه.

فلا تجعل الاستعاذة طلبًا للنجاة من الشيطان فحسب، بل اجعلها استردادًا لقلبك من كل ما استولى عليه بغير حق. قلها كمن ينفض عن روحه غبار العبوديات، ويعلن في صمت الوجود:

لن يكون خوفي المطلق إلا منك، ولا رجائي الأعلى إلا فيك، ولا محبتي التي تُرتب سائر المحاب إلا لك، ولا الطاعة التي لا يعلو عليها أمرٌ إلا لأمرك.

أنت ربي حين أضعف، وملكي حين أخاف، وإلهي

حين تتنازعني الجهات:

(إِلَهِ النَّاسِ).

الفصل السابع

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ... تشريحُ العدوِّ الخفي

بعد أن ملأت السورة قلب المستعيذ بمعرفة مَن يحميه، وعرَّفته إلى ربه وملكه وإلهه، كشفت له حقيقة العدو: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ).

وهذا الترتيب من رحمة القرآن؛ إذ لم يضع الإنسان أولًا أمام الشر فيفزعه، بل وضعه أمام الله ليطمئنه. لم

يبدأ بوصف مكر العدو، وإنما بدأ بعظمة الملاذ.

فالقرآن لا يريد أن يضخم الشيطان في وعي المؤمن حتى تستولي عليه مخافته، بل يريد أن يراه في حجمه الصحيح: عدوٌّ ماكر، لكنه مخلوق ضعيف، يُحذَر منه، ولا يُرهب كأنه يملك سلطانًا يوازي سلطان الله.

إنها معركة غير متكافئة من جهة الحقيقة: العبد يستعيذ برب الناس وملك الناس وإله الناس، بينما عدوه لا يملك إلا الوسوسة، همسًا خفيًّا، وتزيينًا، ووعدًا كاذبًا. فإن أغلق القلب باب الاستجابة، وقف الشيطان خارجه عاجزًا، مهما كرر الطرق.

شرٌّ لا يُرى في بدايته

لم تقل السورة: من الوسواس فحسب، بل قالت: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ). فالوسوسة قد ترد على الإنسان بغير اختياره، ولا يكون مجرد ورودها ذنبًا. إنما الشر فيما تحمله من إفساد، وفيما يمكن أن تفضي إليه إذا استرسل القلب معها وصدَّقها ومنحها قدرًا أكبر من حقيقتها.

وهذا التفريق رحمة بالغة؛ لأن بعض الناس يتألمون من خواطر يكرهونها، ثم يظنون أن وجودها في صدورهم دليلٌ على فسادهم. وقد تكون كراهيتهم

لها، وانقباضهم منها، ومقاومتهم إياها، دليلًا على حياة القلب لا موته. فالقلب الميت لا يتألم من القبيح، أما الحي فينفر منه ولو عجز عن منع مروره.

ليس كل ما يخطر بك اختيارًا منك، وليس كل ما يطرق صدرك تعبيرًا عن حقيقتك. قد تمر في السماء سحابة سوداء دون أن تصير السماء سوداء في جوهرها. وقد يقع الظل على الماء دون أن يتحول الماء إلى ظلام. وكذلك الخاطر: يعبر، فإن لم تُسكنه مضى.

غير أن الوسواس يحاول أن يقنعك بأن الخاطر هو أنت؛ فإذا خطر في نفسك ما تكره قال لك: لو كنت

مؤمنًا لما خطر لك هذا. وبذلك ينتقل من الوسوسة الأولى إلى وسوسةٍ ثانية أخطر منها: يجعلك تخاف من إيمانك، وتراقب نفسك بقلق، وتعيد فحص الخاطر حتى يثبت في ذهنك من كثرة محاولتك طرده.

والطريق الأقوم أن تعرف: هذا خاطرٌ عابر، أكرهه ولا أرضاه، أستعيذ بالله منه وأمضي. لا تحوِّله إلى قضية هوية، ولا تجلس معه في محكمة طويلة، ولا تطلب من قلبك ضمانًا بألا يعود أبدًا. أنت مأمور برده إذا جاء، لا بمنع كل إمكان لوروده.

لماذا سُمِّي وسواسًا؟

في جرس الكلمة نفسها شيءٌ من معناها: تكرارٌ خافت، وعودةٌ بعد عودة، وصوتٌ لا يقتحم، بل يتسلل. إنه لا يضع الفكرة في الصدر مرةً واحدة وينصرف، بل يعيدها بصيغٍ متعددة حتى يألفها الإنسان، أو يتعب من مقاومتها فيستسلم لها طلبًا للراحة.

فالوسواس يفهم أثر التكرار. ما كان القلب يرفضه أول مرة قد يصبح أقل نكارةً في المرة العاشرة، ثم يتحول مع طول الألفة إلى أمرٍ عادي. وليس أخطر

على حساسية الروح من الاعتياد؛ فالشر الذي تراه كل يوم قد يفقد بشاعته، لا لأنه تغيَّر، بل لأن عينك تعبت من رفضه.

يبدأ الأمر بخاطر: ماذا لو فعلت؟ ثم ينتقل إلى تخيل، ثم إلى اقترابٍ من الأسباب، ثم إلى تجربةٍ صغيرة يصفها بأنها لن تتكرر. فإذا تكررت قال: لقد اعتدت، فما فائدة المقاومة؟ وهكذا يستعمل البداية ليدفعك إلى الفعل، ثم يستعمل الفعل ليدفعك إلى الإقامة.

إنه لا يطلب في كل مرةٍ أن تبلغ نهاية الطريق؛ يكفيه أن تخطو خطوةً في جهته. فالانحراف الكبير كثيرًا ما يتكون من تسوياتٍ صغيرة، كل واحدةٍ منها تبدو قابلةً للتبرير. لا يقول لك: بع مبدأك كله، بل: تنازل هذه المرة للضرورة. ثم تتكرر الضرورات حتى يصير المبدأ ذكرى جميلةً بلا أثر.

والنجاة تبدأ من الوعي بالخطوة الأولى؛ لأن رد الخاطر أيسر من رد العادة، وإغلاق النافذة أهون من إخراج اللص بعد استقراره في البيت.

الوسواس لا يصنع المادة من عدم

من مكره أنه يفتش في تضاريس النفس عن موضعٍ قابل للاستجابة. يأتي إلى الإنسان من شهوته الغالبة، أو خوفه القديم، أو جرحه الذي لم يشف، أو فضيلته التي يمكن أن تُدفع إلى الإفراط.

فلا يوسوس للجميع بالطريقة نفسها؛ يأتي إلى محب المال من باب الأمان، وإلى طالب المكانة من باب التأثير، وإلى الغاضب من باب الكرامة، وإلى العابد من باب العجب، وإلى الرحيم من باب رحمةٍ منفلتة

تضيع معها الحدود، وإلى الحازم من باب حزمٍ يتحول إلى قسوة.

وهذه من أخفى حيله: أنه لا يستعمل عيوبك فقط، بل قد يستعمل مزاياك بعد أن يحرف اتجاهها. يحول الشجاعة تهورًا، والحياء ضعفًا عن الحق، والحرص وسواسًا، والتواضع احتقارًا للنفس، والثقة بالله تهاونًا بالأسباب.

فالفضيلة لا تُحفظ باسمها، بل بميزانها. وما يخرج عن الاعتدال الذي يهدي إليه الوحي قد ينقلب إلى ضده، وإن احتفظ بالعنوان الجميل.

ولذلك يحتاج الإنسان إلى معرفة نفسه، لا ليغرق في مراقبتها، بل ليعرف الباب الذي يتكرر منه الدخول.

قد تكون المعارك مختلفة في ظاهرها، لكن وراءها جذرٌ واحد: حاجة مفرطة إلى تقدير الناس، أو خوف من الرفض، أو رغبة في السيطرة، أو جرح كرامة لم يُعالج.

وحين تعرف الجذر، لا تبقَ منشغلًا بتقليم الأغصان وحدها. اسأل: لماذا يملك هذا الخاطر كل هذه القوة عليَّ؟ وأي فراغٍ يجدُه في داخلي؟ ثم احمل الجواب إلى

الله، واطلب منه إصلاح الأصل، لا مجرد إسكات العرض.

التدرُّج... الطريق الهادئ إلى الأسر

نادرًا ما يطلب الوسواس من الإنسان في البداية ما يصدم إيمانه كله. إنه يعرف أن النفس ستقاوم القفزة الكبيرة، فيقسِّم المسافة إلى خطوات. يبدأ بالمباح، ثم يقرِّبه من المشتبه، ثم يضع المشتبه عند حافة الحرام، ثم يجعل الحرام استثناءً، ثم يحول الاستثناء إلى عادة.

ويمنح كل مرحلةٍ تبريرها المناسب. في البداية يقول: الأمر بسيط. وبعد التكرار يقول: لقد فعلت من قبل. فإذا استيقظ الضمير قال: ما دمت قد بلغت هذا الحد فلا معنى للرجوع. وهكذا يستعمل صِغَر الذنب أولًا، ثم يستعمل كِبَره بعد ذلك؛ يصغّره ليوقعك فيه، ويضخّمه ليمنعك من التوبة.

لكن الله يقطع عليه الطريق من الجهتين: لا تحقرنَّ من الشر خطوةً تفتح إلى ما بعدها، ولا تعظمنَّ ذنبًا على مغفرة الله إذا صدقت في الرجوع.

والبصير لا يسأل فقط: هل هذه الخطوة حرام بذاتها؟ بل يسأل أيضًا: إلى أين تقودني؟ وما الذي تصنعه في حساسية قلبي؟ فقد يكون الأمر في أصله مباحًا، لكنه صار لشخص بعينه طريقًا يتكرر منه السقوط. ومن فقه النفس أن تعرف أن ما لا يضر غيرك قد يضرك بسبب موضع ضعفك، فتبتعد عنه لا تحريمًا لما أحل الله، بل حمايةً لقلبك.

التزيين... حين يرتدي القبح ثوبًا جميلًا

لو جاء الباطل بصورته العارية لرفضته فطر كثيرة، ولذلك كانت وظيفة الوسواس أن يزيِّنه. لا يغير حقيقة الشر، لكنه يغير زاوية النظر إليه. يجعل العاجل حاضرًا لامعًا، ويجعل العاقبة بعيدةً باهتة. يريك لذة المعصية، ويخفي مرارة أثرها، ويريك مشقة الطاعة، ويخفي سكينة ثمرتها.

إنه فنان اللقطة المبتورة؛ يعرض عليك المشهد الذي يخدم دعوته، ويحذف بقيته. يريك من الانتقام لحظة التشفي، ولا يريك ما يتركه من سواد. يريك من

الشهرة تصفيق الحاضرين، ولا يريك القلق من انصرافهم. يريك من المال قدرته على الشراء، ولا يريك ما قد يزرعه من خوفٍ وطمع. ويذكرك من التوبة بالمشقة التي في بدايتها، ولا يريك الحرية التي تنتظرك بعدها.

والوحي يعيد المشهد كاملًا. لا ينكر اللذة العابرة لبعض المعاصي، لكنه يضعها إلى جوار مآلها. ولا ينكر كلفة الطاعة، لكنه يكشف ما وراءها من حياة. فالمعركة ليست بين حقيقةٍ وخيالٍ دائمًا، بل بين حاضرٍ ناقص وعاقبةٍ كاملة.

ولهذا يحتاج القلب إلى البصيرة: القدرة على رؤية ما بعد اللمعان. ليست كل فكرةٍ جذابة نورًا، فقد يكون اللمعان لمعانَ سكين.

التسويف... ألطفُ أسماء المنع

إذا عجز الوسواس عن إقناع الإنسان بترك الخير، أقنعه بتأجيله. لا يقل له: لا تتب، بل: تب حين تستقر ظروفك. ولا يقل: لا تقرأ القرآن، بل: اقرأ حين يتسع وقتك ويصفو ذهنك. ولا يقل: لا تعتذر، بل: انتظر حتى يهدأ الأمر.

وهكذا يبدو الاقتراح معقولًا؛ فهو لا يعارض الخير من حيث المبدأ، بل يرحِّله إلى زمنٍ غامض اسمه: لاحقًا. وتمر الأيام، ويظل الخير محترمًا في الفكر مؤجلًا في الواقع.

التسويف يريح الضمير دون أن يغير الحياة. يشعر الإنسان أنه صاحب نيةٍ حسنة، لأنه ما زال يريد التوبة والعمل، لكنه لا ينتبه إلى أن العمر يُقاس بما وقع منه، لا بما ظل مؤجلًا في الخيال.

ومن حيل الوسواس أنه يطالبك ببداية مثالية: لنبدأ حين نتوفر الخطة الكاملة، والطاقة العالية، والظروف

الهادئة. لكن معظم التحولات الصادقة تبدأ ناقصة؛ ركعتان بقلبٍ مشتت خير من انتظار خشوعٍ كامل لا يأتي، وصفحة تُقرأ اليوم خير من مشروع ختمةٍ مؤجل، وكلمة اعتذار مرتجفة خير من خطابٍ بليغ لا يُقال.

الله يفتح لك باب الآن، والوسواس يريك قصرًا وهميًّا في الغد. فاختر الباب الصغير المفتوح، ولا تنخدع بالقصر الذي لا طريق إليه.

الخنَّاس... لحظة انكشاف الضعف

بعد أن وصفته السورة بالوسواس، وصفته بـ (الْخَنَّاسِ). والخنوس هو التأخر والاختفاء والتراجع. وهذه الكلمة تكسر الهالة التي يحاول العدو أن يصنعها حول نفسه؛ فهو مع إلحاحه ليس ثابتًا في المواجهة، بل يتراجع إذا ذُكر الله واستيقظ القلب.

إنه قوي بمقدار غفلتك، ضعيف بمقدار حضورك. يتمدد في الفراغ، فإذا امتلأ القلب بالذكر ضاقت عليه المساحة. لا لأن اللفظ تعويذةٌ آلية، بل لأن الذكر يعيد الحقيقة التي يحاول الوسواس تغييبها.

حين يوسوس لك بالفقر، يذكِّرك الذكر بأن الرزق بيد الله. وحين يوسوس لك بالعظمة، يذكِّرك بأصلك وعبوديتك. وحين يوسوس باليأس، يعيد إلى قلبك سعة الرحمة. وحين يوسوس بالمعصية، يستحضر لك نظر الله وقربه.

فالوسواس يعيش من غياب الحقائق عن الوعي، والذكر يعيدها. إنه لا يخلق واقعًا جديدًا، بل يضع حجابًا على الواقع؛ فإذا ذُكر الله انكشف الحجاب، ورأى القلب الأشياء بأحجامها.

وقد يخنس الوسواس ثم يعود؛ ولذلك جاءت الصيغة دالةً على تكرر الفعل. لا تقل: استعذت مرة، فلماذا عادت الفكرة؟ إن عودتها لا تعني فشل الاستعاذة؛ فالمعركة بطبيعتها متجددة. كما تغلق باب بيتك كل ليلة، وتغسل جسدك كلما علق به الغبار، تجدد حراسة القلب كلما عاد الطارق.

كيف يخنس عند الذكر؟

ليس الذكر حركة لسانٍ منفصلةً عن الوعي، وإن كان تحريك اللسان خيرًا وبابًا للاستحضار. الذكر

الكامل أن يحضر المذكور في قلبك، أن تقول: الله أكبر، فتصغر في نفسك الأشياء التي ضخمتها الوسوسة. وأن تقول: حسبي الله، فتنقل اعتمادك من الأسباب المحدودة إلى رب الأسباب. وأن تستغفر، فترفض أن يجعل الذنب آخر قصتك.

وقد يكون ذكر الله موقفًا بقدر ما يكون قولًا؛ تمسك يدك عن الظلم لأنك تذكره، فتكون قد هزمت وسوسة الغضب. تغض بصرك، فيصير غضك ذكرًا عمليًّا. ترد الأمانة حين تستطيع خيانتها، فتكتب بجوار كلمة التوحيد برهانها السلوكي.

الوسواس لا يخنس من كلمةٍ يناقضها السلوك باختيار صاحبه. من قال: أعوذ بالله، ثم ظل يغذي الفكرة ويطلب أسبابها، لم يدخل في معنى الاستعاذة كاملًا. أما من قالها، ثم قطع النظر، وغيَّر المجلس، وأمسك اللسان، فقد حوَّل الذكر إلى بابٍ مغلقٍ في وجه العدو.

وسوسة الطاعة

ليست المعصية الميدان الوحيد للوسواس؛ فقد يتبع الإنسان إلى الطاعة نفسها. فإن عجز عن منعه منها،

حاول إفسادها بالعجب والرياء، أو حوَّلها إلى مشقةٍ وسواسية تجاوز هدي الشريعة.

قد يقول للمصلي: لم تعقد النية على الوجه الصحيح؛ أعد. ثم يقول: لعل وضوءك انتقض؛ أعد. ثم يظل يدفعه إلى التكرار حتى تصير العبادة التي جاءت سكينةً مصدر عذاب.

وقد يأتيه من الطرف الآخر، فيقول بعد الطاعة: ما أعظم خشوعك! ما أقلَّ من يبلغ منزلتك! فيخرج العبد من عبادة ربه إلى الإعجاب بعبادته. وكأنه نجا من ترك الصلاة، لكنه وقع في رؤية نفسه.

فإن سلِمت الطاعة من الرياء في بدايتها، ربما جاءها بعد انتهائها؛ يدفعك إلى ذكرها في مواضع لا حاجة فيها، أو انتظار أثرها في أعين الناس. وإن أخفيتها عنهم، جعلك معجبًا بأنك أخفيتها!

وهكذا تحتاج العبادة إلى حماية قبلها وفي أثنائها وبعدها: قبلها بالإخلاص والاستعانة، وفيها بالحضور، وبعدها بالاستغفار وعدم رؤية النفس. وكان الصالحون يخافون من رد العمل أكثر من انشغالهم بحجمه؛ لأن قبول طاعةٍ صغيرةٍ خير من عملٍ كبير أفسده القلب.

لكن الحذر من الرياء لا ينبغي أن يتحول إلى ترك العمل؛ فهذه حيلة أخرى. اعمل، وجاهد نيتك، واستغفر من نقصها، ولا تنتظر قلبًا لا تتحرك فيه الخواطر. الإخلاص ليس غياب المجاهدة، بل أن تظل تعيد وجهة العمل إلى الله كلما حاولت النفس سرقته.

لا تجعله محور حياتك

من مفارقات الوسوسة أن الإنسان قد يهزم نفسه بكثرة انشغاله بعدوه. يراقب كل فكرة، ويخاف من

كل إحساس، ويحلل كل حركة، حتى يصير الشيطان محور يومه؛ بينما جاءت السورة لتجعل الله محور القلب، لا الوسواس.

الحماية ليست أن تظل تنظر إلى الظلام، بل أن تتجه نحو النور. لا تجعل مشروعك الأكبر ألا توسوس؛ اجعل مشروعك أن تعرف الله، وتحبه، وتملأ يومك بالخير. فالقلب لا يفرغ بمجرد طرد الباطل، وإنما يحتاج إلى حقٍّ يسكنه.

أحيانًا يكون أفضل ردٍّ على الوسواس أن تمضي في الحياة: أكمل عملك، وصلاتك، وحديثك، ولا توقف

يومك لتمنحه جلسة تحقيق. إن بعض الخواطر يضمر حين يكتشف أن صاحبه لم يعد يكافئه بالانتباه.

ومَن ابتُلي بوساوس قهرية شديدةٍ تعطل حياته، فطلب المساعدة المتخصصة لا يناقض الإيمان ولا الاستعاذة؛ فالعلاج من الأسباب التي يسَّرها الله، والاضطراب النفسي ليس دليلًا على ضعف الدين. قد يحتاج القلب إلى الذكر، ويحتاج الجهاز النفسي إلى علاج، ولا تعارض بين الأمرين؛ فكلاهما من أبواب رب الناس.

عدوٌّ يهمس وربٌّ يسمع

في نهاية هذا التأمل، تظهر المفارقة المطمئنة:

الوسواس لا يملك إلا أن يهمس، وربك يسمع

الهمس قبل أن يصل إليك، ويعلم حركته في صدرك،

ويعلم مقاومتك التي لا يراها أحد.

قد يهزمك في جولة، لكنه لا يملك أن يحكم نهاية

الطريق. وقد يعود ألف مرة، ولك أن تعود إلى الله

ألفًا وواحدة. سلاحه التكرار، وسلاحك بابٌ لا

يُغلق. هو يريد أن يرهقك من العودة، وربك يحب

التوابين.

فلا تخف من إلحاحه حتى تظنه قدرًا لا يُدفع، ولا تحتقره حتى تفتح له الباب. اعرف مكره، ثم اعرف ضعفه. إنه وسواس لأنه لا يملك أن يأمر علنًا، وخنَّاس لأنه لا يثبت أمام الذكر.

وكلما جاءك، لا تسأله طويلًا: ماذا تريد؟ بل قل لربك: أنت تعلم ما يريد، وتعلم ضعفي، فاكفنيه.

ثم امضِ في طريقك، ولا تلتفت إلى الصوت المتراجع وراءك؛ فقد احتميت برب الناس، وملك الناس، وإله الناس:

(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ).

الفصل الثامن

فِي صُدُورِ النَّاسِ... المنطقةُ بين الخاطر والاختيار

بعد أن وصفت السورة العدو بأنه (الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)، كشفت ساحة عمله: (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ).

إنه لا يبدأ من اليد حين تمتد، ولا من القدم حين تخطو، ولا من اللسان حين ينطق؛ بل يسبق ذلك كله

إلى المساحة الخفية التي تتكون فيها الدوافع. يقترب من منبع الفعل قبل أن يصير الفعل مرئيًّا، ويلقي البذرة قبل أن تظهر الشجرة.

فالجوارح آخر الحكاية، أما الصدر فأولها. هناك تنشأ الفكرة، ثم تجد من النفس إصغاءً أو إعراضًا، وتتحول إلى ميل، ثم إلى عزم، ثم تطلب من الجوارح أن تمنحها صورةً في العالم. ولهذا كان صلاح الظاهر مرتبطًا بحراسة الباطن؛ فمن أصلح المنبع جرى الماء في جوارحه أنقى.

لكن الآية لا تقول: يملك صدور الناس، ولا: يقهر قلوبهم، وإنما تقول: (يُوَسْوِسُ). إنه فعل الاقتراب والإلقاء، لا فعل السيطرة المطلقة. وهذه المسافة بين الإلقاء والاستجابة هي موضع التكليف، وفيها تظهر حرية الإنسان ومسؤوليته وحاجته إلى الله.

لماذا قال: في الصدور؟

للصدر في التعبير القرآني صلةٌ بعالم الأسرار والخواطر والنوايا. إنه الوعاء الذي تختفي فيه مشروعات الأفعال قبل ظهورها. لكن الآية لم تقل: الذي يوسوس في

قلوب الناس؛ وفي ذلك معنى يبعث الطمأنينة فيمن أرهقته الخواطر التي يكرهها: قد تقع الوسوسة في محيط الصدر، وتحوم حول القلب، وتحاول النفاذ إليه، لكنها ليست هي القلب نفسه.

القلب قد يرفض ما يمر به، ويتألم من وجوده، ويجاهد كي لا يستقر. وليس من العدل أن يحكم الإنسان على إيمانه بكل عابرٍ لم يختره. فكما تسمع أذنك كلامًا لا توافق عليه، قد يمر في صدرك خاطرٌ لا ترضاه. السماع ليس تصديقًا، والورود ليس قبولًا، والوسوسة ليست عقيدة.

بل إن كراهية بعض الخواطر علامةٌ على أن في القلب ميزانًا حيًّا يرفضها. والذي يؤلمه ورودها ليس هو الذي دعاها، بل هو القلب الذي رأى فيها ما يخالف إيمانه وصفاءه.

غير أن الوسواس يستغل حساسية المؤمن؛ يلقي الخاطر أولًا، ثم يقول له: إن وجود هذا الخاطر دليل على فسادك. فيدخل العبد في خوفٍ من نفسه، ويبدأ بمراقبة عقيدته ومشاعره مراقبةً مرهقة. وكلما حاول أن يتأكد أنه لا يفكر في الأمر، عاد إليه من خلال محاولته ألا يفكر فيه.

وهكذا لا تعود المعاناة من الخاطر الأول فقط، بل من الخوف منه وتفسيره تفسيرًا خاطئًا. أما السورة فتضعه في مكانه: وسوسةٌ في الصدر، من عدوٍّ خارجي، لا حقيقة نهائية عنك.

لستَ كلَّ ما يدور في داخلك

يظن الإنسان أحيانًا أن ذاته هي مجموع ما يشعر به ويفكر فيه، فيقول: ما دام هذا قد وقع في نفسي فلا بد أنني أريده. لكن النفس أوسع من خاطر، والقلب

أعمق من لحظة، والإنسان لا يُعرَّف بما اقتحم صدره بغير اختياره، بل بما قبله وعزم عليه وسعى إليه.

قد تشعر بالغضب، لكنك لست الغضب؛ أنت الذي يستطيع أن يراه ويمنعه من الظلم. وقد يمر بك حسدٌ فتكرهه وتدعو لصاحبه بالبركة؛ فلا يكون الخاطر تعريفًا لك، بل تكون مجاهدتك هي الأصدق في التعبير عنك. وقد يهاجمك خوف، ثم تمضي في الواجب رغم خوفك؛ فالشجاعة ليست غياب الخوف، بل ألا تمنحه القرار الأخير.

إن كثيرًا من السلام النفسي يبدأ حين يتعلم الإنسان التفريق بين وجود الشعور وطاعته. ليس كل ما تحس به أمرًا يجب تنفيذه، ولا كل ما تفكر فيه حقيقةً يجب تصديقها. العقل يعرض احتمالات، والنفس تستدعي ذكريات، والشيطان يوسوس، لكن القلب يستطيع أن يعرض ذلك كله على ميزان الوحي والعقل السليم.

وحين تعرف أنك مراقبٌ لخواطرك لا مجموعها، تتسع بينك وبينها مسافةٌ تمكنك من الاختيار. تقول: هذا خوفٌ يمر بي، لا نبوءةٌ عن مستقبلي. وهذا

غضبٌ يطلب الكلام، لا حكمٌ بأن الكلام صواب.

وهذه وسوسة، لا عقيدة.

تسمية الخاطر باسمه تنزع عنه كثيرًا من سلطانه.

المنطقة الفاصلة بين الخاطر والفعل

بين أن يخطر الشر في الصدر وبين أن تفعله مراحل.

وقد لا تكون الحدود بينها دائمًا ظاهرة، لكنها

موجودة: ورود الفكرة، ثم الالتفات إليها، ثم

الاسترسال معها، ثم الميل، ثم العزم، ثم الفعل.

في أول الطريق يكون ردُّها أيسر؛ فهي غريبة لم تضرب لها جذورًا. فإذا جلس الإنسان معها، وسقاها بالخيال، وأعاد تفاصيلها، بدأت تأخذ من حرارة المشاعر وقوة الإرادة. ومن هنا تأتي أهمية الحراسة المبكرة؛ لا لأن كل خاطرٍ خطر، بل لأن بعض الخواطر إذا استُضيفت صارت ضيوفًا ثقيلةً تطلب امتلاك البيت.

والخيال من أخطر الجسور بين الفكرة والفعل. قد لا يفعل الإنسان المعصية في الواقع، لكنه يعيد تمثيلها في ذهنه حتى تألفها النفس، وتتضاءل رهبتها. وكل فعلٍ

يتكرر في الخيال يترك أثرًا، وإن لم يكن في ذاته فعلًا خارجيًّا.

لهذا لا يكفي أن تقول: أنا لم أفعل، إذا كنت تغذي الطريق إلى الفعل كل يوم. الحكمة أن تقطع المادة التي يتغذى منها الخاطر، وأن تعرف أي صورةٍ أو مجلسٍ أو ذكرى تفتح بابه.

لكن هذا لا يعني أن يعيش الإنسان خائفًا من عقله؛ فالخواطر العابرة لا تُطارد، بل تُعرض عنها النفس. وأحيانًا يكون الإعراض أبلغ من المواجهة؛

لأنك حين تقاوم فكرةً بعنفٍ متوتر قد تثبتها بانتباهك، بينما تضعف إذا تركتها تمر دون تحقيقٍ ولا محاكمة.

القلب ليس ساحةً فارغة

لا تستطيع أن تحمي صدرك بمجرد القول: لا أفكر، لا أغضب، لا أحسد. فالفراغ يستدعي ما يملؤه، والقلب الذي لا يُغذَّى بالمعنى يصبح أكثر قابليةً لكل طارق. الحراسة ليست طردًا مستمرًّا فحسب، بل بناءٌ لما يستحق السكن.

إذا أردت أن يضعف سوء الظن، فازرع حسن التأويل حيث يجوز، وتعلَّم أن تسأل بدل أن تفترض. وإذا أردت أن يضعف الحسد، فتأمل سعة خزائن الله، واشكر نعمك، وادعُ بالبركة لمن وجدت في قلبك شيئًا تجاهه. وإذا أردت أن يضعف الرياء، فابنِ بينك وبين الله أعمالًا خفيةً لا يعرفها أحد.

فالفضيلة لا تنمو بالنفي وحده. لا يكفي أن تقتلع شوكةً، ازرع في مكانها وردةً، وإلا عادت الأرض إلى إنتاج الشوك. ولا يكفي أن تقطع عادةً سيئة دون

أن تمنح النفس بديلًا طيبًا يلبي حاجتها على وجهٍ صحيح.

قد يكون وراء التعلق المذموم حاجةٌ إلى الأمان، فلا يكفي أن تقول لنفسك: لا تتعلق؛ بل عمِّق صلتك بالله وابنِ علاقاتٍ متوازنة. وقد يكون وراء طلب الثناء جوعٌ إلى الشعور بالقيمة، فلا تكتفِ بلوم نفسك على الرياء؛ تعلَّم أن قيمتك في عبوديتك لله، لا في عدد العيون التي تراك.

إن إصلاح الصدر ليس حربًا على النفس، بل تربيةٌ لها. فهي لا تُشفى دائمًا بالعقوبة الداخلية، وإنما بالفهم والتهذيب والتدرج.

حين تتحول المحاسبة إلى وسوسة

مراقبة القلب مطلوبة، ومحاسبة النفس من أبواب الإصلاح؛ لكن الوسواس قد يدخل من هذا الباب نفسه، فيحوِّل المحاسبة إلى استجوابٍ لا ينتهي.

يطالب الإنسان أن يعرف مقدار إخلاصه بدقة، وأن يتأكد من كل دافع، وأن يراجع كل كلمة قالها: هل

قصدت بها خيرًا أم رياء؟ هل أسأت أم لم تسئ؟ هل كان شعوري صحيحًا؟

وهكذا ينقلب الوعي بالداخل إلى دورانٍ حول الذات، ويصير الإنسان مشغولًا بقلبه عن ربه، وبقياس إيمانه عن ممارسة الإيمان. يريد يقينًا كاملًا بنقاء دوافعه، وهو أمر لا يملكه بشر؛ فالنفوس ممتزجة، والإخلاص يحتاج إلى مجاهدة مستمرة.

المحاسبة النافعة تنتهي إلى قرار: أخطأت فأستغفر وأصلح، أو أحسنت فأشكر وأمضي. أما المحاسبة الوسواسية فلا تنتهي إلى شيء؛ تعيد السؤال نفسه بعد

كل جواب، وتستهلك الطاقة التي كان يمكن أن تتحول إلى عمل.

ليس مطلوبًا أن تحدق في تربة القلب كل ساعة لترى هل نمت البذرة؛ فالحديقة تُسقى، ثم يُترك لها وقتها. أصلح نيتك بما تستطيع، واعمل، واستغفر من النقص، ولا تجعل انتظار النقاء الكامل ذريعةً للجمود.

إن الله لا يكلِّفك علم ما في قلبك على التفصيل الذي يعلمه هو، بل يكلِّفك الصدق فيما ظهر لك، والمجاهدة فيما قدرت عليه. وما خفي عنك بعد بذل الوسع، فربك أعلم بك وأرحم.

صدرٌ يحمل آثار السنين

ليست صدور الناس صفحاتٍ بيضاء متشابهة. يحمل كل إنسان في داخله تاريخًا من الكلمات والمواقف والفقد والخذلان. وقد تجد الوسوسة طريقها من خلال جرحٍ قديم لم يلتئم؛ تأتي إلى من خُذل فتقول: لن يصدق معك أحد. وإلى من فشل فتقول: كل محاولةٍ جديدة ستنتهي كما انتهت الأولى. وإلى من تعرض للإهانة فتجعله يرى الاحتقار في كل نظرة.

الحدث انتهى، لكن أثره بقي يصنع تأويل الحاضر. فالإنسان لا يرى العالم بعينيه فقط، بل بذاكرته أيضًا.

وقد يظن أنه يقرأ موقفًا جديدًا، بينما هو في الحقيقة يعيد قراءة جرحٍ قديم.

وهنا يحتاج الصدر إلى ترميمٍ رحيم، لا إلى لومٍ قاسٍ. فبعض ردود الأفعال ليست خبثًا، بل دفاعاتٌ تعلمتها النفس حين كانت تتألم. غير أن ما حماك في مرحلةٍ قد يسجنك في مرحلة أخرى؛ والحذر الذي منعك من تكرار الخذلان قد يتحول إلى جدار يمنع عنك المودة الصادقة.

أن تفهم جرحك لا يعني أن تمنحه قيادة حياتك، بل أن تعرف من أين يأتي الصوت حتى لا تظنه دائمًا

صوت الحقيقة. تقول لنفسك: أنا أخاف الآن لأنني تألمت من قبل، لكن الماضي لا يملك الدليل الكامل على الحاضر.

وفي هذا الموضع تكون الاستعاذة رجوعًا إلى ربٍّ يعلم القصة من أولها. تقول: يا رب، إن في صدري آثارًا لا أعرف كيف أفككها؛ فلا تجعلها منافذ للوسواس، واشفِها حتى لا أظلم بها نفسي ولا الناس.

وقد يكون العلاج بمناجاةٍ صادقة، أو حوارٍ أمين، أو وقتٍ وصبر، أو مساعدةٍ نفسية متخصصة. وكل

سببٍ مباح يعيد إلى الإنسان توازنه هو من تيسير رب الناس، فلا حرج في الأخذ به.

وسواسُ المقارنة

من أكثر ما يفسد الصدور أن ينظر الإنسان إلى حياة الآخرين من نافذة الظاهر، ثم يقارنها بباطنه المكشوف له. يرى نجاحهم ولا يرى خوفهم، ويرى ابتساماتهم ولا يرى الليالي التي بكوا فيها، ويرى ما وصلوا إليه ولا يرى الثمن الذي دفعوه.

ثم يقول له الوسواس: الجميع يتقدمون إلا أنت.

الجميع محبوبون إلا أنت. الجميع وجدوا مكانهم، وأنت وحدك عالق. ولا يحتاج في كذبته إلى أن تكون مطلقة؛ يكفي أن يحذف من المشهد ما يكذبه.

المقارنة غير العادلة تجعل الإنسان يحتقر نعمته؛ لا لأن النعمة صغيرة، بل لأنها ليست نسخةً من نعمة غيره. ينظر إلى الزهرة في يد أخيه، فينسى البستان الذي اعتاده حتى لم يعد يراه.

وحين يوقن بأن الله رب الناس يعلم مساراتهم المختلفة، يسقط وهم السباق الواحد. ليست كل

الأرواح تُربَّى بالطريق نفسه، ولا كل الثمار تنضج في الموسم نفسه. قد يكون تأخرك في أمرٍ حمايةً أو إعدادًا، وقد يكون تقدم غيرك ابتلاءً له. وأنت لا تملك القصة كاملةً كي تصدر حكم النهاية من منتصف الطريق.

المطلوب أن تنظر إلى ما في يد غيرك لتبارك، وإلى ما في يدك لتشكر، وإلى ما ينقصك لتسعى دون حسد. فإن وجدتَ في صدرك ألم المقارنة، فلا تنكر شعورك ولا تبرره؛ استعذ بالله، وسمِّ نعمك، وادعُ لأخيك، ثم عد إلى طريقك.

وسواسُ قراءة النيات

تزدحم الصدور بتفسيراتٍ لا أدلة عليها. يقول لك شخص كلمةً تحتمل وجوهًا، فيختار الوسواس أشدها إيذاءً، ثم يعيدها حتى يبدو الظن يقينًا. وبعد ذلك لا تعود نتعامل مع الكلمة التي قيلت، بل مع النية التي تخيلتها وراءها.

وهكذا تُبنى خصوماتٌ كاملة على نصوص لم ينطق بها أحد، بل كتبها الخوف في داخلنا. قد يكون الآخر متعبًا فظننته متكبرًا، أو غافلًا فحسبته متعمدًا، أو عاجزًا فاتهمته بأنه لا يحبك.

ليس حسن الظن سذاجةً تلغي الوقائع، ولا دعوةً إلى أن تفتح قلبك لمن ثبت أذاه؛ بل هو ألا تحوِّل الاحتمال إلى إدانة، وألا تمنح الخاطر حكم الحقيقة بلا بيِّنة. وإذا أمكن السؤال، كان السؤال أرحم من بناء محكمةٍ كاملة في الصدر.

الوسواس يكره الوضوح؛ لأنه يعيش في الفراغات التي لا تُملأ بالمعلومات. وكلما طال الصمت امتلأ الفراغ بتأويلاته. وقد تنتهي عداوةٌ طويلة بسؤالٍ واحد: هل قصدت ذلك؟ فيظهر أن قسمًا كبيرًا من

المعركة كان يدور بين الإنسان وتفسيره، لا بينه وبين أخيه.

الصدر الذي يتسع بالنور

الوسوسة تضيق الصدر، تجعل الفكرة الواحدة تملأ مساحته كلها، حتى لا يرى الإنسان خارجها. أما ذكر الله فيوسِّعه، لا بمعنى أن تختفي المشكلات، بل أن يراها داخل أفقٍ أكبر. المصيبة موجودة، لكنها ليست الوجود كله. والخطأ حقيقي، لكنه ليس هوية

الإنسان كلها. والخوف مفهوم، لكنه ليس نبوءةً حتمية.

حين يتسع الصدر بالإيمان، يستطيع أن يحمل الألم والأمل معًا؛ يعترف بما يوجعه دون أن ينكر رحمة الله، ويرى ضعفه دون أن ينسى إمكان النهوض، ويخاف من الشر دون أن يعتقد أن الشر هو القوة العليا في الكون.

وهذا الاتساع ثمرة معرفة الأسماء التي سبقت: لي ربٌّ يربيني، وملكٌ يدبر أمري، وإلهٌ إليه غايتي. حين تستقر هذه المعاني، لا يعود الصدر غرفةً مغلقةً يدوّي

فيها صوت الوسواس، بل يصير له نافذةٌ مفتوحة على السماء.

حراسةُ البوابة دون كراهية البيت

قد يكره الإنسان نفسه بسبب ما يجده في صدره، فيتحول مشروع الإصلاح إلى حربٍ داخلية. يجلد نفسه على كل خاطر، ويحتقرها، ويظن أن القسوة عليها هي الطريق إلى تزكيتها. لكن النفس لا تُطهَّر بالكراهية وحدها؛ إنها أمانة تحتاج إلى تأديبٍ ورحمة.

حراسة الصدر لا تعني أن تكره الصدر، بل أن تعرف قيمته. أنت تحرسه لأنه موضع الإيمان والنية والمحبة، ولأن الله أراد له أن يكون وعاءً للنور. والشيء النفيس هو الذي يستحق الحراسة.

كن حازمًا مع الوسوسة، رحيمًا مع الإنسان الذي يجاهدها فيك. لا تبرر الخطأ، لكن لا تحوِّل العثرة إلى سوطٍ تضرب به روحك كل يوم. صحح، واستغفر، وتعلم، ثم اسمح لنفسك أن تمضي.

فالله لم يجعل التوبة بابًا لكي تقف عند عتبته تعيد وصف ذنبك إلى الأبد، بل لتدخل منه إلى حياةٍ جديدة.

بين الخاطر والاختيار يولد الإنسان

في المسافة بين ما يُلقى في صدرك وما تختاره تتشكل أخلاقك. ليست قيمتك في أن تكون بلا صراع، بل في الوجهة التي تتخذها داخله. قد يمر بك داعي الانتقام، فتختار العدل؛ ويمر بك الحسد،

فتختار الدعاء بالبركة، ويمر بك اليأس، فتقوم إلى ركعتين.

وهذه الاختيارات الصغيرة لا يراها الناس، لكنها عند الله بناءٌ كامل للروح. ربما لم يعلم أحد أنك حبست كلمةً كانت ستجرح، أو أنك قاومت خاطراً ساعات، أو أنك ابتسمت في وجه من حسدتَه حتى تطهّر قلبك. لكن رب الناس يرى المعركة التي تدور وراء الوجه الهادئ.

وهذا يمنح المجاهدة معناها: لا شيء من المقاومة الصادقة يضيع، حتى إن عادت الوسوسة. كل مرةٍ

ترفض فيها الخضوع لها، تقوى فيك قدرة الاختيار، ويتسع الطريق بين الخاطر والفعل.

فإذا ألحَّت عليك الخواطر، فلا تقل: لقد امتلأت بها، إذن أنا هي. قل: هذا صدري ساحة ابتلاء، أما قلبي فأريده لله. وقد لا أملك منع كل طارق، لكنني أملك أن أستعين بربي على ألا أسلمه المفتاح.

هكذا يصبح الصدر ميدانًا للعبودية، لا موضعًا للخجل. وفي كل مرةٍ يعبره الوسواس ثم يخرج خائبًا، تكتب في الداخل شهادةٌ صامتة:

أن الخاطر ليس سيِّدًا، وأن الإنسان ليس أسيرًا، وأن القلب المحروس بذكر الله يستطيع أن يبقى نقيَّ الوجهة وإن مرَّت به غيوم كثيرة:

(الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ).

الفصل التاسع

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ... حين ترتدي الوسوسةُ وجهًا بشريًّا

تأتي خاتمة السورة لتوسّع دائرة الوعي بالخطر: (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

فليس كل وسواسٍ صوتًا خفيًّا لا يُرى صاحبه؛ قد يكون كلمةً ينطق بها إنسان، أو فكرةً تُجمَّل في خطاب، أو عادةً تتواطأ عليها البيئة، أو معيارًا فاسدًا

يتكرر حتى يبدو من البدهيات. وقد يأتي الشر في صورة نصيحةٍ مشفقة، أو مزاحٍ عابر، أو رأيٍ شائع، أو دعوةٍ براقة إلى النجاح والسعادة والحرية.

وسواس الجن خفيٌّ لأننا لا نرى مصدره، ووسواس الإنس قد يكون أخفى من جهةٍ أخرى؛ لأننا نرى الوجه ونأنس به، فنطمئن إلى ما يصدر عنه. قد نحتاط من عدوٍّ صريح، لكننا نفتح صدورنا لصديقٍ يحبنا ولا يحسن توجيهنا، أو لشخصٍ بليغ يملك اللغة ولا يملك الهداية، أو لجماعةٍ تمنحنا القبول مقابل أن نتنازل قليلًا عن بصيرتنا.

وهكذا تنتهي السورة بتربية المؤمن على حراسة منافذ التأثير، دون أن تحوله إلى إنسانٍ مرتاب يسيء الظن بالخلق. فهي لا تقول إن الناس جميعًا موسوسون، بل تعلمه أن الشر قد يأتيه من عالمٍ غير منظور، وقد يأتيه من بشرٍ منظورين، وأن الميزان ليس في هيئة المتكلم وحدها، بل في حقيقة ما يقول وإلى أين يقود.

الإنسان الذي يتحول إلى لسانٍ للوسوسة

ليس كل من يوسوس للناس شيطانًا في صورته الظاهرة أو واعيًا تمامًا بما يفعل. قد ينقل الإنسان فكرةً

فاسدةً لأنه تلقاها من غيره، أو يثبط صاحبه لأنه أسقط عليه مخاوفه الخاصة، أو يزين له التنازل لأنه لا يريد أن يشعر وحده بتأنيب الضمير.

فالمعصية تبحث أحيانًا عمَّن يشاركها؛ لأن انفراد صاحبها بها يوقظ في داخله معنى الخطأ، فإذا وجد من يوافقه شعر أن الكثرة تخفف قبح الفعل. يقول لصاحبه: لا تكن متشددًا، الجميع يفعلون ذلك. وكأن انتشار الخطأ يغير حقيقته، أو كأن كثرة السائرين تستطيع أن تبدل وجهة الطريق.

وقد يدفع إنسانٌ غيره إلى الشر لا حبًّا في الشر ذاته، بل غيرةً أو حسدًا أو رغبةً في السيطرة. يخشى أن ينهض صاحبه فيذكره بقعوده، أو أن يتغير فيفقد تأثيره عليه، فيبدأ بتصغير محاولاته: لن تستمر، أنت تبالغ، ما حاجتك إلى كل هذا؟

إن بعض الناس لا يؤلمهم أن تبقى سيئًا بقدر ما يؤلمهم أن تصبح أفضل من الصورة التي ثبتوك فيها. لقد اعتادوا نسخةً منك تخدم توازنهم النفسي؛ فإذا بدأت تنمو، شعروا أن نموك حكمٌ عليهم، ولو لم تحاكمهم.

وهنا يحتاج السائر إلى بصيرةٍ ورفق. لا يعادي كل من لم يفهم تحوله، ولا يسمح في الوقت نفسه لأحد أن يعيده إلى موضعٍ أخرجه الله منه.

حين تسمى الوسوسة نصيحة

أخطر الكلام ما لبس ثوب النصيحة، لأن النفس تستقبله وقد خفضت دفاعاتها. وقد يحمل الناصح حبًّا صادقًا، لكنه يرى العالم من نافذة تجربته المحدودة؛ فينصحك بما يناسب خوفه لا رسالتك، وبما يحفظ راحتك العاجلة لا سلامة مبدئك.

قد يقول لك: لا تتكلم بالحق كي لا تخسر مكانتك. سمِّ تنازلك حكمة. لا تواجه الخطأ، فالصمت أسلم. لا تبدأ ذلك المشروع، فإنك قد تفشل. وهو لا يريد بك شرًّا بالضرورة، لكنه يجعل الأمان أعلى قيمة، بينما قد تتطلب الأمانة قدرًا من المخاطرة والصبر.

وليست كل دعوةٍ إلى الحذر وسوسة، فالحكمة تزن العواقب، والمؤمن لا يلقي بنفسه إلى التهلكة. وإنما الفرق أن النصيحة الصادقة تساعدك على أداء الحق بأحكم طريق، أما التثبيط فيجعل السلامة من كل كلفةٍ هي الغاية، ولو ضاع الواجب.

وقد تأتي الوسوسة من ناصحٍ ديني فيحملك على غلوٍّ لم يطلبه الله، أو يضيق عليك ما وسَّعته الشريعة، أو يربط صلاحك بتقليد تجربته الخاصة في كل تفاصيلها. فيتوهم أن ما نفعه هو الطريق الوحيد للجميع، وينسى أن النفوس والأحوال تتنوع داخل حدود الحق.

لذلك لا يكفي صدق النية لضمان صواب النصيحة، كما لا يكفي الخطأ للحكم بسوء نية الناصح. نزن القول، ونحفظ لصاحبه كرامته، ولا نسلِّم له مفاتيح القلب.

سُلطةُ الجماعة

للإنسان حاجة فطرية إلى الانتماء، يريد أن يكون جزءًا من جماعة تحبه وتفهمه وتمنحه الأمان. وهذه الحاجة نعمة حين تجمعه على الحق والتعاون، لكنها قد تتحول إلى منفذٍ للوسوسة حين يصبح القبول مشروطًا بالتنازل عن الضمير.

تبدأ الجماعة بتعليم الفرد لغتها، ثم قد تمنحه عيونها التي يرى بها الأشياء. فلا يعود يسأل: أهذا حق؟ بل يسأل: ماذا يقول جماعتنا؟ ولا يعود يقيس الموقف بالعدل، بل بموقع صاحبه من دائرة الولاء والخصومة.

فإذا أخطأ القريب بحث له عن الأعذار، وإذا فعل الخصم الشيء نفسه بحث له عن أشد الاتهامات.

وهكذا لا تتبدل الوقائع، بل يتبدل الميزان بحسب الأسماء. وهذه من أخفى وساوس الإنس؛ لأنها لا تأتي في صورة دعوة إلى الظلم، بل في صورة وفاء وانتماء ونصرة.

لكن التوحيد يحرر المؤمن من عبادة الجماعة، دون أن يحرمه نعمة الانتماء إليها. يحب إخوانه، وينصرهم على الحق، ويقوم أخطاءهم، ولا يرى

النصيحة خيانة. يعرف أن الجماعة تخدم الحق، وأن الحق لا يتحول إلى خادمٍ لمصالحها.

ومن صدق الأخوة ألا تجعل محبة أخيك حجابًا بينه وبين رؤية خطئه، وألا تنصره ظالمًا بإبقائه في ظلمه، بل بكفِّه عنه. فالذي يصفق لك وأنت تهوي ليس ناصرك، والذي يمسكك عن السقوط وإن آلمتك قبضته قد يكون أصدق الناس ودًّا.

وسوسةُ الكثرة

من أكثر العبارات قدرةً على تعطيل البصيرة: «الناس كلهم يفعلون ذلك». فالإنسان يستوحش من المخالفة، ويجد في الكثرة طمأنينةً نفسية، حتى لو لم تكن الكثرة دليلًا معرفيًّا.

لكن الحق لا يكتسب حقيقته بعدد مؤيديه، كما أن الباطل لا يفقد بطلانه بكثرة ممارسيه. قد يصبح الاعوجاج عرفًا، حتى يبدو المستقيم شاذًّا، ويصبح الإفراط في الاستهلاك طبيعيًّا، فيبدو القانع عاجزًا،

ويصبح طلب الشهرة هدفًا عامًا، فيبدو الحامل عن الأضواء فاقدًا للطموح.

الوسواس الاجتماعي لا يقول لك: اترك قيمك. وإنما يسألك بلهجة المستغرب: أمعقول أنك ما زلت تؤمن بهذا؟ ثم يجعلك تشعر أن الزمن نفسه يحاكمك، وأن موافقة العصر أعلى من موافقة الحق.

وليس المؤمن عدوًّا لعصره، ولا يرفض الجديد لأنه جديد؛ فالحكمة ضالته، والعلم النافع من نعم الله. لكنه لا يمنح الزمن سلطة تحويل الحقائق الأخلاقية لمجرد أن الأذواق تغيرت. يسأل عن البرهان، لا عن

تاريخ الفكرة وحده؛ فما كان ظلمًا لا يصبح عدلًا لأن الناس أحسنوا تسويقه.

والغربة ليست فضيلةً في ذاتها؛ قد يكون الإنسان منفردًا لأنه مخطئ. لكن الوحدة في طريق الحق أشرف من جماعةٍ تمنحك الدفء وهي تقودك بعيدًا عن الله.

الكلمات التي تُعيد تشكيل الضمير

اللغة ليست وعاءً محايدًا دائمًا؛ فقد تغير طريقة تسمية الأشياء طريقة شعورنا بها. حين يسمى الجبن حكمة،

والخيانة مصلحة، والظلم حزمًا، والتبرج حريةً بلا حدود، والرياء صناعةً للصورة، تتغير حساسية الضمير تدريجيًّا.

إن تغيير الاسم لا يغير الحقيقة، لكنه قد يخدر قدرة النفس على رؤيتها. فالإنسان ينفر من السرقة، لكنه قد يقبل «الاستفادة من الفرصة». ويكره الكذب، لكنه يطمئن إلى «إدارة الانطباع». ويرفض الغيبة، لكنه يستمتع بـ«تحليل الشخصيات».

وهنا يعمل وسواس الإنس عبر القاموس؛ يكسو الفعل القبيح لفظًا جميلًا حتى يمر من بوابة القلب بلا

مقاومة. وتبقى البصيرة القرآنية مهمتها أن تنزع الأقنعة، وأن تعيد الأشياء إلى أسمائها الأخلاقية الحقيقية.

لكن هذا يتطلب عدلًا ودقة؛ فلا يجوز في الاتجاه الآخر أن نحمل كل لفظٍ حديث أسوأ المعاني، أو نتهم الناس بلا بيِّنة. إنما المقصود ألا نستسلم لزينة الاسم، بل نسأل عن حقيقة الفعل وآثاره وميزانه عند الله.

فقد يكون اللفظ قديمًا والمضمون فاسدًا، وقد يكون اللفظ حديثًا والمضمون نافعًا. الميزان ليس في زخرفة اللغة ولا في غرابتها، بل في الحق الذي تحمله.

وسواسُ الإعلام والصورة المتكررة

كان الإنسان قديمًا يسمع من محيطٍ محدود، أما اليوم فتدخل إلى صدره أصواتٌ لا يحصيها: صور ورسائل ومقاطع وآراء، تتكرر حتى يعجز عن معرفة أيها اختاره وأيها اختاره له التكرار.

لا تحتاج الرسالة المعاصرة دائمًا إلى إقناعك بحجة؛ يكفي أن تريك الشيء كثيرًا حتى تألفه، أو تخفيه حتى تظن أنه غير موجود. التكرار يصنع الإحساس بالطبيعي، والانتقاء يصنع صورةً ناقصة للعالم.

يرى الإنسان أجسادًا منتقاة وحيواتٍ محررة بعناية، ثم يقارن بها يومه العادي. ينسى أن ما يراه لقطةٌ لا حياة، وواجهةٌ لا بيتًا كاملًا. ومع كثرة التعرض تبدأ نفسه تشعر أنها أقل جمالًا ونجاحًا وسعادةً، لا لأن حياتها تغيرت، بل لأن المعيار الذي تقيس به قد تم التلاعب به.

وقد تصير المنصة مرآةً لا تعرض وجهه، بل تعيد تشكيله وفق ما يكافئه الجمهور. يكتب ما يؤمن به في البداية، ثم يتعلم ما يجلب التفاعل، فيبدأ ـ من حيث لا يشعر ـ بانتقاء أفكاره وفق شهية المتابعين. وربما تحولت الرسالة من نورٍ يريد إيصاله إلى صورةٍ يريد حمايتها.

ليس الحل أن يهجر الإنسان كل وسيلة، بل أن يعرف طبيعتها ويحرس قلبه. يسأل نفسه: ماذا يصنع هذا المحتوى فيَّ؟ هل يزيدني بصيرةً أم مقارنةً؟ هل

يوقظ واجبًا أم يستنزف انفعالي؟ هل أستعمل الوسيلة، أم صارت هي التي تستعمل وقتي ومزاجي؟

الوسواس البشري قد يكون اليوم نظامًا كاملًا من الرسائل المتكررة، وليس شخصًا واحدًا يهمس في أذنك. ولهذا تحتاج الاستعاذة إلى وعيٍ عملي: أن تختار ما تسمح له بالدخول إلى صدرك، فليس كل ما تستطيع رؤيته يستحق أن تراه.

الصحبة التي ترفع والصحبة التي تُخدِّر

للقلوب عدوى خفية؛ تجالس الإنسان زمنًا فتنتقل إليك طريقته في رؤية الأشياء قبل أن تنتقل كلماته. فإذا عاشرت شاكرًا، تعلمت عينك أن ترى النعم؛ وإذا لازمت ساخطًا، بدأت ترى النقص في كل شيء. وإذا صاحبت صاحب همة، استحيت من تسويفك؛ وإذا صاحبت مستسلمًا، وجدت لأعذارك جماعةً تصفق لها.

الصاحب لا يأمرك دائمًا أمرًا مباشرًا، لكن مستوى حياته يصبح رسالةً صامتة تحدد لك ما هو الممكن

والمقبول. قد لا يقول لك: اترك الصلاة، لكنه يسخر من أهلها حتى يضعف توقيرها في قلبك. وقد لا يدعوك إلى الغيبة، لكنه يجعل المجالس لا تحلو إلا بتمزيق الغائبين.

والصحبة الصالحة ليست صحبةً معصومة لا تخطئ، بل صحبةٌ تردك إلى الله إذا نسيت، وتحفظ كرامتك وهي تنصحك، وتفرح بنموك بدل أن تخاف منه. إذا رأت فيك خيرًا أعانتك عليه، وإذا رأت عيبًا لم تستعمله لتشعرك بالدونية.

اختر من تستطيع أمامه أن تكون صادقًا لا متصنعًا، ومن لا يطلب منك أن تعصي ضميرك لتثبت ولاءك، ومن إذا افترقتما بقي عرضك آمنًا على لسانه.

فالقلب يتشكل بمن يكرر الجلوس إليهم، ورب كلمةٍ من صديقٍ صادق أغلقت بابًا ظلت الوسوسة تطرقه سنوات.

لا تجعل الحذر سوءَ ظن

حين تتعلم أن الوسوسة قد تأتي من الناس، قد تقع في طرفٍ آخر: أن تشك في كل كلمة، وتبحث خلف

كل نصيحة عن مؤامرة، وترى كل مخالف عدوًّا يريد إفسادك. وهذه نفسها قد تكون وسوسةً جديدة تلبس لباس الحذر.

المؤمن بصير، لكنه ليس ظنونًا متحركة. يحذر بدليل، ويحسن الظن حيث لا بيِّنة، ويجمع بين سلامة الصدر وحفظ الحدود. ليس مطلوبًا أن تفتح أبوابك للجميع، ولا أن تتهم كل من يقف خارجها.

يمكنك أن تقول: هذه النصيحة لا تناسبني، دون أن تحكم على صاحبها بسوء القصد. ويمكنك أن تبتعد عن

تأثير شخصٍ ما، مع حفظ كرامته وعدم تشويه نيته.

فرب إنسانٍ أضر بك من حيث ظن أنه ينفعك.

والعدل هنا من أعظم الحصون؛ لأن الوسواس يريد أن ينقلك من سذاجة الثقة المطلقة إلى قسوة الاتهام المطلق. أما الهدى فيقيمك في الوسط: قلبٌ لا يحمل الحقد، وعقلٌ لا يسلم قياده بلا تمييز.

لا تكن أنت وسواسًا لغيرك

لا تكتمل قراءة الآية إذا انشغل الإنسان بمن يوسوس له، ونسي أن يسأل: هل أكون أحيانًا واحدًا ممن يوسوسون للناس؟

قد تفسد على إنسانٍ عزيمته بكلمة سخرية، أو تفتح في قلبه باب المقارنة حين تستعرض نعمتك بلا مراعاة، أو تنقل إليه خوفك في صورة نصيحة، أو تزين له خطأً حتى لا تشعر بالوحدة فيه.

وقد تكون وسوسة الإنس في نشر الشائعات، وإثارة الشكوك، وتكرار الأخبار المؤذية بلا تحقق، وزرع

العداوة بين القلوب. كلمةٌ واحدة قد تنتهي في صدرك بعد دقائق، لكنها تستمر في صدر من سمعها سنوات.

فليحرس المؤمن لسانه كما يحرس صدره. قبل أن نتكلم، اسأل: ماذا ستزرع كلمتي في الداخل الآخر؟ هل ستوقظ فيه الأمل أم اليأس؟ وهل هي حقٌّ يحتاج إليه أم سمٌّ أريد أن أفرغه لأرتاح؟

ليس معنى ذلك أن تمتنع عن الحق الثقيل؛ فقد تكون الكلمة المؤلمة دواءً. لكن الدواء يُعطى بقصد الشفاء، وبالقدر المناسب، وفي الوقت الذي ينفع. أما

التشفي فيرتدي أحيانًا ثوب الصراحة، ويقول: أنا لا أجامل، بينما هو يستمتع بجرح الآخرين.

والناصح لله لا يفرح بإدانة المنصوح، بل يتمنى لو وصل إليه الحق بأقل قدرٍ من الألم.

الوحي ميزانُ الأصوات

وسط هذا الزحام البشري، يحتاج القلب إلى مرجعٍ لا يخضع لأهواء الجماعات وتقلبات الأزمنة. وهنا يكون الوحي ميزانًا، لا لإلغاء العقل والتجربة، بل

لإنارتهما وحمايتهما من أن يتحولا إلى أداةٍ لتبرير ما تريد النفس.

نسمع الناس، ونستفيد من علومهم، ونراجع فهمنا، لكننا لا نمنح بشرًا عصمةً مطلقة. كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد، ومحبته لا تعني تسليم العقل له، ومكانته لا تحول خطأه صوابًا.

وحتى فهمنا للوحي يحتاج إلى علمٍ وتواضع؛ فقد يحمل المرء النص ثم يقرأ فيه هواه. ولذلك لا يقول المؤمن: أنا والوحي شيءٌ واحد، بل يقول: أحاول أن أفهم وأصيب، وقد أخطئ فأرجع. فالتواضع العلمي

يحميه من أن يجعل تفسيره الشخصي صوت الله الذي لا يجوز نقاشه.

وحين يختلف عليه الناس، يعود إلى الأصول المحكمة: العدل، والرحمة، والصدق، والتوحيد، وحرمة الظلم، ومسؤولية الإنسان أمام الله. فما كان يطلب منه أن يخون هذه الأصول باسم مصلحةٍ عابرة، فذلك صوتٌ يستحق المقاومة مهما زُيِّن.

بين آخر كلمتين

تختم السورة بـ (الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)، فتجمع عالمي الخفاء والظهور في مجال الاستعاذة. وكأنها تقول: ليست المشكلة في أن ترى مصدر الخطر أو لا تراه؛ فالملاذ واحد. ما جاءك من همسٍ لا تعرف صاحبه، وما جاءك من إنسانٍ تعرف اسمه ووجهه، كلاهما يُعرض على نور الله.

لكن ورود الناس في نهاية السورة يعيد الإنسان إلى نفسه: أنت ممن تستعيذ لأجلهم، وقد تكون ممن يُستعاذ من شرهم إن تركت لسانك وهواك بلا

حراسة. أنت ساحة المعركة، وقد تصبح أداةً فيها.

ولهذا لا تقرأ السورة بعين الضحية وحدها، بل بعين المسؤول: احمِ صدرك، ولا تفسد صدور الآخرين.

كن ممن إذا جلس إليه الناس شعروا أن إيمانهم يقوى، وأن كرامتهم تُصان، وأن الطريق إلى الله يتسع أمامهم. لا تكن صوتًا يضخم خوفهم، ولا عينًا تشعرهم بالدونية، ولا لسانًا يجعل اليأس حكمةً ساخرة.

ففي عالمٍ ممتلئ بالأصوات، قد تكون العبادة أن تختار الكلمة التي لا تزيد الضجيج، وأن تصمت عن

خاطرٍ مؤذٍ بدل أن تمنحه حياةً جديدةً في صدر أخيك.

وهكذا لا تنتهي السورة بتحذير الإنسان من الناس، بل بتعليمه كيف يعيش بينهم بقلبٍ له ميزان: يحب دون انبهار، ويستفيد دون استسلام، ويحذر دون كراهية، وينصح دون استعلاء.

ويمضي بينهم مستعيذًا بربهم، لا متحصنًا منهم جميعًا، عالمًا أن الخير والشر قد يمران عبر البشر، وأن قلبه لا ينبغي أن يكون بيتًا مفتوحًا لكل صوت، ولا سجنًا مغلقًا أمام كل محبة.

فإذا اختلطت عليه الهمسات، رفع قلبه إلى من يعلم منابعها جميعًا، وقال:

(مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

الفصل العاشر

الإنسانُ في حِمى الله

تصل سورة الناس إلى نهايتها، غير أن معناها لا ينتهي. تبقى في القلب كحارسٍ يقظ عند آخر أبواب المصحف، وكأن القرآن بعد أن سلَّم الإنسان كنوز الهداية كلَّها، لم يتركه يحملها وحده في طريقٍ تكثر فيه الأيدي الخفية؛ بل علَّمه كلمة الحفظ، ودلَّه على باب الحمى، وردَّه من كل قوةٍ موهومة إلى القوة التي لا تُغلب:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

ست آياتٍ قصيرة، لكنها ترسم خارطة المعركة كلها: إنسانٌ ضعيف، وعدوٌّ خفي، وصدرٌ تتزاحم فيه الخواطر، وربٌّ يرعى، وملكٌ يحكم، وإلهٌ يستحق القلب. وبين الضعف والحماية كلمةٌ واحدة تحمل حركة الروح بأكملها: أعوذ.

إن السورة لا تعد الإنسان بعالمٍ بلا وساوس، بل تعلّمه كيف يظل قلبه لله في عالم الوسوسة. ولا تخبره

أن الشر سيغيب من طريقه، بل تمنحه بصيرةً تميزه، وملاذًا يفر إليه، وذكرًا يخنس عنده العدو. فالانتصار ليس أن تعيش خارج المعركة، وإنما أن تعرف في داخلها مَن ربك، ومَن عدوك، ومَن أنت.

الإنسان بين نفختين

في الإنسان شيءٌ يصعد به، وشيءٌ يشده إلى أسفل؛ يحمل قابلية المعرفة، ويحمل قابلية النسيان؛ يستطيع أن يسجد لله، ويستطيع أن يطيع هواه. ليس مَلَكًا لا تعتريه شهوة، ولا شيطانًا خالص الشر، بل مخلوقٌ

مكلَّف، تتحدد قيمته بما يختاره في هذه المساحة بين الدعوتين.

والوسواس يدخل من هذا التركيب الإنساني؛ فلا يخلق في النفس رغباتها، لكنه يحاول أن يحرفها. فحب البقاء يصبح خوفًا جبانًا، وحب المال يصير شحًّا، وحب الكرامة يتحول كِبرًا، وحب الجمال ينقلب افتتانًا بالشكل، وحب الحق يمتزج بالانتصار للنفس.

لكن الربوبية لا تلغي هذه القوى، وإنما تهذِّبها وتردها إلى وظائفها الصحيحة. لم يُطلب من الإنسان

أن يصير بلا رغبة، بل ألا تصير الرغبة إلهه. ولم يُطلب منه ألا يغضب، بل ألا يظلم حين يغضب. ولم يُطلب منه ألا يحب الدنيا، بل ألا يقدمها على الآخرة، وألا يحملها في قلبه على صورةٍ تخرجه من عبودية الله.

إن الحمى الإلهي لا يمحو إنسانيتك، بل يحرسها من التشوه. يعيد الشهوة إلى حدها، والخوف إلى حجمه، والحب إلى طهارته، والعقل إلى تواضعه. وحين يستعيذ الإنسان بربه، فهو لا يهرب من نفسه، بل يطلب استردادها من كل ما يريد أن يستولي عليها.

الضعف الذي يعرف طريقه

ليس الإنسان ضعيفًا لأنه يُوسوس إليه؛ فتلك طبيعة الابتلاء. وإنما يبدأ ضعفه الخطر حين يظن أنه لا يحتاج إلى الله، أو يثق بصلابته حتى يترك أبوابه بلا حراسة.

أما الضعف الذي يعرف طريقه إلى الله، فهو بداية قوة. فالطفل ضعيف، لكن ضعفه بين يدي أمٍّ رحيمة يصير سببًا للرعاية. والعبد ضعيف، لكن ضعفه بين يدي ربه يصير عبوديةً ودعاءً واستمدادًا.

لقد كان يمكن للإنسان أن ينظر إلى هشاشته فييأس، لكن سورة الناس تحول الهشاشة إلى باب: ما دمت ضعيفًا فلك رب، وما دام لك عدو فلك ملك، وما دامت الجهات تتنازع قلبك فلك إله.

إن أعظم الخسارة ليست أن تسقط، بل أن تسقط بعيدًا عن معنى الرجوع. وأعظم القوة ليست ألا تتعثر، بل أن تبقى الصلة بالله أقوى من كل عثرة.

كلما أبعدتك الوسوسة خطوةً عدت خطوتين: خطوةً بالتوبة، وخطوةً بالمعرفة التي اكتسبتها من السقوط.

وقد تخرج من المعركة أصلب إيمانًا، لا لأن الوسوسة خير، بل لأنك عرفت من خلالها افتقارك إلى الله، وتعلمت أن قلبك لا يحيا بما يعرفه عن ربه فقط، بل بما يستمده منه في كل لحظة.

الحمى ليس مكانًا بلا ألم

قد يظن الإنسان أن احتماءه بالله يعني ألا يخاف، ولا يحزن، ولا يتأذى، فإذا بقي شيءٌ من ذلك قال: أين أثر الاستعاذة؟ لكن الحماية الإلهية أعمق من أن تُختزل في اختفاء الشعور المؤلم.

قد يحفظك الله بأن يمنع الشر، وقد يحفظك بأن يمنحك بصيرةً تراه قبل أن يستقر. وقد يحفظك بأن يهبك قوةً لمقاومته، أو يجعل ألم المعركة سببًا لقربك منه. وقد يحفظ دينك، وإن تألمت نفسك؛ فتخرج من البلاء مجروحًا، لكنك لم تتحول إلى ظالم، ولم تبع مبدأك، ولم تفقد رجاءك بالله.

إن النجاة ليست دائمًا أن تخرج من النار بلا أثر؛ فقد تكون أن تخرج منها وقلبك لم يعبد النار، ولسانك لم ينطق بما يسخط الله، وروحك ازداد معدنها صفاءً.

وكم من إنسانٍ لم يُرفع عنه البلاء سريعًا، لكن رُفع عنه اليأس؛ فصار البلاء موجودًا ولم يعد يملك المعنى كله. وكم من عبدٍ بقيت في صدره الوساوس زمنًا، لكنه تعلم ألا يطيعها، فكانت حمايته في المسافة التي خلقها الله بين الخاطر والاختيار.

لا تقس قرب الله منك فقط بهدوء مشاعرك؛ فقد تكون قريبًا وأنت تجاهد، محبوبًا وأنت تبكي، محفوظًا وأنت تعبر العاصفة. السفينة المحفوظة ليست التي لا تدخل البحر، بل التي لا يبتلعها البحر.

من آخر المصحف إلى أوله

ينتهي القرآن بـ (النَّاسِ)، ويبدأ في ترتيب المصحف بالحمد لله (رَبِّ الْعَالَمِينَ). وبين رب العالمين ورب الناس تمتد رحلة الوحي كلُّها؛ تبدأ بمعرفة الرب الذي يستحق الحمد، وتنتهي بالفرار إليه من كل ما يفسد هذه المعرفة.

وحين يغلق القارئ المصحف عند سورة الناس، كأن السورة تعيده إلى الفاتحة من جديد. لقد استعذت برب الناس، فارجع لتقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). واستعذت بملك الناس، فاقرأ: (مَالِكِ يَوْمِ

الدِّينِ). واستعذت بإله الناس، فجدد عهدك: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

وكأن نهايتي القرآن وبدايته تتعانقان: استعاذةٌ تفتح طريق العبادة، وعبادةٌ لا تستغني عن الاستعاذة.

فالعبد لا يستطيع أن يقول بصدق: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) إلا إذا تحرر من الآلهة الخفية، ولا يستطيع: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إلا إذا عرف أنه لا ينجو بقوته وحدها.

وهكذا لا يكون ختم القرآن نهاية قراءة، بل بدء دورةٍ جديدة من الهداية. كلما بلغت سورة الناس اكتشفت حاجتك إلى العودة إلى الكتاب، لأن

الوسواس يتجدد، والقلب يتقلب، والحياة تضعك كل يوم أمام امتحانٍ لم يكن موجودًا بالأمس.

فالقرآن ليس كتابًا تقرؤه مرةً لتعرف محتواه، بل نورٌ تحتاج إليه كلما تغير موقعك من الطريق. الآية التي قرأتها في العافية تقول لك معنى، ثم تقرؤها في البلاء فتفتح لك بابًا آخر. ليس لأنها تبدلت، بل لأنك أنت الذي جئت إليها بقلبٍ جديد وافتقارٍ جديد.

الذكر بوصفه عودةً إلى الحقيقة

حين يخنس الوسواس عند ذكر الله، فذلك لأن الذكر يعيد الأشياء إلى أحجامها. فالوسواس يعمل على تشويه المقاييس: يضخّم الخطر، ويصغّر الرحمة؛ يقرّب اللذة، ويُبعد العاقبة؛ يريك قوتك حين ينبغي أن تفتقر، ويريك ضعفك حين ينبغي أن ترجو.

أما الذكر فيعيد هندسة المشهد: الله أكبر من الخوف، وأرحم من الذنب، وأبقى من الفقد، وأقرب من الوحشة. وحين يقول القلب: حسبي الله، لا يعني

أن الأسباب اختفت، بل أن السبب الأكبر عاد إلى وعيه.

النسيان ليس دائمًا غياب المعلومة؛ قد تعرف أن الله معك، لكنك تعيش لحظتك كأنك وحيد. والذكر لا يعطيك حقيقةً جديدة بقدر ما يوقظ الحقيقة الغائبة عن شعورك.

ولهذا تتكرر الأذكار؛ فالإنسان لا ينسى مرةً واحدة، بل ينسى على امتداد يومه. يدخل موقفًا فيستولي عليه الغضب، ويدخل آخر فيستولي عليه الخوف، ثم يسمع ثناءً فتستولي عليه نفسه. وفي كل

مرةٍ يحتاج إلى أن يعود: لي رب، وأنا عبد؛ له الأمر، وأنا مأمور؛ هو الباقي، وما عداه عابر.

إن الذاكر ليس إنسانًا يكرر ألفاظًا بعيدًا عن الحياة، بل إنسانًا يردُّ قلبه باستمرار إلى مركز الوجود.

أن تكون محروسًا لا يعني أن تكون معصومًا

قد يخطئ المستعيذ، ويضعف الذاكر، ويستجيب المؤمن أحيانًا للوسوسة. فالسورة لا تمنح الإنسان عصمةً من البشرية، وإنما تمنحه طريقًا للعودة كلما غلبته بشريته.

وهذا يحميه من طرفين: الغرور حين يطيع، واليأس حين يعصي. إذا أطاع قال: هذا من توفيق ربي، فلا يعجب بنفسه. وإذا عصى قال: لي رب يقبل التوبة، فلا يقنط. وبين الشكر والاستغفار يظل القلب على الطريق.

إن الوسواس يريد أن يجعل نجاحك في الطاعة دليلًا على استغنائك، وفشلك فيها دليلًا على هلاكك. أما العبودية فتقرأ الأمرين قراءةً أخرى: النجاح يدعوك إلى الشكر ومزيد الافتقار، والفشل يدعوك إلى التوبة ومزيد الافتقار. وفي الحالتين تعود إلى الله.

ولهذا يكره الشيطان التوبة؛ لأنها تحول انتصاره المؤقت إلى هزيمة. أوقع العبد في الذنب ليبعده، فإذا بالعبد يعود منكسرًا، متواضعًا، عالمًا بضعفه، فيصير بعد التوبة أقرب مما كان قبل العثرة.

لكن لا يطلب الإنسان الذنب ليبلغ الانكسار؛ فالسلامة خير. إنما إذا وقع، فلا يمنح الشيطان انتصارًا ثانيًا باليأس بعد انتصاره الأول بالمعصية.

القلب الذي لا يخلو من الطارقين

سيظل صدر الإنسان ما دام حيًّا تمر به الخواطر. لن يصير فراغًا صامتًا، ولن تتوقف أصوات العالم عن الوصول إليه. المطلوب ليس أن يغلق قلبه عن الحياة، بل أن يمتلك بوابةً واعية: ما الذي يدخل؟ وما الذي يعبر؟ وما الذي يُرد؟

هناك كلمةٌ من إنسان صالح ينبغي أن تُستقبل، ونصيحةٌ ثقيلة تحمل الشفاء، وذكرى خير توقظ الهمة. ليست كل المؤثرات شرًّا، كما أن العزلة الكاملة

ليست عصمة. رب كلمةٍ سمعتها من أخٍ كانت من رحمة الله بك، ورب مجلسٍ أعاد ترتيب حياتك.

فالتمييز لا يعني الرفض العام، بل أن يكون للوحي ميزان، وللعقل حضوره، وللقلب يقظته. لا تصدق كل ما تشعر به، ولا تكذب كل ما يأتيك من الخارج. انظر إلى الثمرة: هل يقودك هذا إلى صدقٍ وعدلٍ ورحمةٍ وعبودية، أم إلى كبرٍ وحقدٍ وشهوةٍ ويأس؟

وإذا اشتبه عليك الأمر، فلا تستبد برأيك، استخر ربك، واستشر صادقًا بصيرًا، وانتظر حتى يهدأ

اضطرابك. فبعض القرارات التي تبدو واضحةً في ذروة الانفعال تنكشف حقيقتها حين يسكن الموج.

لا تخف من نفسك... ربِّها

تعلِّمنا السورة أن في الصدر منافذ للوسوسة، لكنها لا تدعونا إلى كراهية النفس. الإنسان ليس عدو نفسه على الحقيقة؛ إنما نفسه أمانةٌ قد تجهل وتضعف وتشتهي، وتحتاج إلى تربية.

عاملها كطفلٍ يحتاج إلى الحزم والرحمة معًا. إن دللتها في كل رغبة أفسدتها، وإن أذللتها في كل عثرة

كسرتها. قل لها حين تشتهي الحرام: لا، لأنني أحب نجاتك. وقل لها حين تيأس: انهضي، لأن ربك لم يغلق الباب.

التزكية ليست مشروع إبادةٍ لما هو إنساني، بل مشروع تحريرٍ له من الفوضى. أنت لا تقتل رغباتك، بل تُهذبها؛ ولا تمحو شخصيتك، بل تُخليها من عبودية ما سوى الله.

والذي يعرف ربه لا يحتقر نفسه؛ لأنها مخلوقةٌ لله، ومحل تكليفه، وموضع نفخة الحياة التي أكرمه بها.

لكنه لا يقدسها كذلك؛ يعرف ضعفها، ويراقب أهواءها، ولا يجعل كل ما تريده حقًّا.

بين الاحتقار والتقديس تنشأ النفس العبدة: كريمة بالله، متواضعةً أمامه.

الإنسان الذي يصير ملاذًا للآخرين

حين يحتمي الإنسان برب الناس، لا ينبغي أن يتحول إلى كائنٍ منغلق لا يرى إلا نجاته الخاصة. فمَن ذاق الأمان عند الله يصير في حدود بشريته أمانًا لمن

حوله: يأمن الناس لسانه، ويطمئنون إلى عدله، ويجد المنكسر عنده رحمةً لا استعلاء.

ليس مطلوبًا أن يحمل عنهم ما لا يطيق، ولا أن يكون منقذًا ينسى حدوده، لكنه يستطيع ألا يزيد جراحهم. يستطيع أن تكون كلمته باب رجاء، وأن تكون نصيحته رفيقة، وأن يكون خلافه نزيهًا لا ينتهك الكرامة.

إن من أعظم صور مقاومة وسواس الإنس ألا تسمح للشر أن يعبر من خلالك إلى صدرٍ آخر. لا

تنقل إشاعة، ولا توقظ حسدًا، ولا تزرع شكًّا بين محبين، ولا تستعمل ضعف إنسانٍ لتستعلي عليه.

كن ممن إذا ذكر الله خنس الشر في مجلسهم؛ لا لأنهم يعظون في كل لحظة، بل لأن الصدق في حضورهم يفضح الكذب، والرحمة تخجل القسوة، والنزاهة تجعل الخيانة غريبة.

وحين تصبح عونًا لأخيك على مقاومة وسواسه، تكون من آثار ربوبية الله في حياته؛ ساقك إليه كلمةً طيبةً، أو يدًا تمسكه، أو أذنًا تسمع دون محاكمة.

الصباح الذي يبدأ بالاستعاذة

كل صباح يدخل الإنسان يومًا لا يعرف ما خُبئ فيه من امتحان. قد يستيقظ مطمئنًا ثم يسمع كلمةً تغير مزاجه، أو يتعرض لموقفٍ يمتحن خلقه، أو تفتح أمامه فرصةٌ تختبر أمانته.

وسورة الناس تعطيه هيئة الدخول: لا يدخل اليوم متكئًا على هدوء الأمس، بل مستعيذًا. يقول في معنى قلبه: يا رب، أنا لا أعرف أبواب هذا اليوم، ولا أعرف صور الشر التي قد تتجمل لي، فكن معي.

وحين يأتي المساء، يعود مستعيذًا من آثار ما عبر صدره، ومستغفرًا مما أصابه منه. وما بين الصباح والمساء يعيش متجدد الصلة، لا يدعي أن استعاذة البداية تكفيه عن يقظة الطريق.

إنها دورةٌ يومية من الدخول إلى الحمى: نخرج إلى العالم، ويصيبنا غباره، ثم نعود إلى الله لنغتسل بالذكر والتوبة. وليس في تكرر الحاجة ما يدعو إلى الملل؛ فالعبد عبدٌ في كل لحظة، وربه ربٌّ في كل لحظة.

الكلمة الأخيرة: لستَ وحدك

إذا أردنا أن نختصر الهداية الشعورية الكبرى في سورة الناس، فهي هذه: لست وحدك في مواجهة ما لا تراه.

قد تكون وحيدًا في غرفة، ولا يدرك أحدٌ المعركة التي تضج في صدرك. قد يراك الناس هادئًا، وأنت تردُّ جيشًا من الخواطر. قد تعجز عن شرح ما تجد، ويظن المقربون أن الأمر أيسر مما تشعر به.

لكن رب الناس يعلم. يعلم الخاطر قبل أن تفهمه، ويرى مقاومتك قبل أن تظهر في فعل، ويسمع

استعاذتك ولو لم تتجاوز نبضة قلب. أنت لا تقاتل لتلفت نظره؛ أنت تحت نظره منذ بدأت المعركة.

وهو ملك الناس؛ فلا يخرج عدوك عن سلطانه، ولا يملك الوسواس مفاتيح قلبك إلا بمقدار ما تفتح له.

وهو إله الناس؛ فإذا امتلأ به قلبك لم تعد الأصوات الأخرى قادرةً على ادعاء الألوهية فيه.

فلا تقُل: أنا أضعف من هذه المعركة، ثم تسكت. أكمل الجملة: أنا أضعف منها وحدي، لكنني لست وحدي.

هذه الزيادة الصغيرة تغيِّر المعنى كله.

آخر السورة... وأول النجاة

تنتهي سورة الناس، ويبقى العبد عند باب الله. لا يحمل إلى ربه بطولةً يدعيها، بل فقراً يعترف به. لا يقول: عرفتُ نفسي كلها، بل: يا رب، أنت أعلم بي. ولا يقول: هزمتُ عدوي بقوتي، بل: لولا حفظك ما ثبتُّ.

وهذا هو مقام الأمان: ألا تعتمد على نفسك، ولا تيأس منها؛ أن تعمل بها مستعيناً بخالقها، وأن تحرسها دون أن تتوهم أنك الحارس الوحيد.

كلما وسوس لك الخوف، قل: لي رب. وكلما ضخَّم المخلوق، قل: لي ملك. وكلما نازع هواك قبلة القلب، قل: لي إله. وكلما همس العدو، ارفع صوت الروح بالاستعاذة.

فإذا أخبرك أنك ضائع، فاذكر أن لك هاديًا. وإذا أخبرك أنك متروك، فاذكر أنك في ملك الله. وإذا قال إن قلبك قد امتلأ بالظلام، فافتح فيه نافذة الذكر؛ فالظلام مهما مكث لا يحتاج عند طلوع النور إلى زمنٍ طويل كي يزول.

وهكذا لا تكون خاتمة القرآن إعلانًا بانتهاء الكلام، بل تسليمًا للإنسان إلى حمى المتكلم سبحانه. كأن الوحي بعد أن صحبك من الفاتحة إلى الناس، يقف بك عند الباب الأخير، ثم يقول لك: هذا قلبك، وهذه معركتك، وهذا ربك؛ فلا تمضِ بنفسك وحدها.

قُلها كلما تناثرت في داخلك الجهات، وكلما هاجت عليك الأصوات، وكلما خفت من عدوٍّ لا تراه أو إنسانٍ ترى وجهه ولا تعرف ما يحمل لك:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

فليس الأمان أن تخلو الحياة من الشر، بل أن يكون لك في مواجهته ربٌّ تلوذ به.

وليس النصر أن تنقطع الوساوس فلا تعود، بل أن يعود قلبك إلى الله كلما عادت.

وليس كمال الإنسان أن يستغني عن الحمى، بل أن يعرف بابها، وأن يظل ما دام حيًّا عبدًا واقفًا عليه.

تمَّ بحمد الله كتيبُ سورة الناس، واستوفينا فصوله العشرة ومعاني آيات السورة جميعًا.